

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــ 85 ـــدد

01 كانون الثاني 2023

شمس العروبة تشرق من المغرب



نحو مشروع للنّهوض القومي



المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 85
01 كانون الثاني 2023



لماذا قومي عربي؟

• أنا قومي عربي لأني أريد توحيد الوطن العربي.
أنا قومي عربي لأني ضد هيمنة الدول الإمبريالية على الأقطار العربية والتي لا يمكننا مواجهتها إلا إذا توحدت صفوفنا

• أنا قومي عربي لأني أريد أن أعيش في دولة قوية تمتلك كل مقومات الانطلاق نحو بناء قوة حربية، اقتصادية، تكنولوجية، وإعلامية

• أنا قومي عربي لأني أريد استرجاع أراضينا المسلوبة من قبل المتغولين علينا ولأنني أريد التحرر من هيمنة القوى الخارجية

• أنا قومي عربي لأني أريد أن تكون للمواطن العربي هيبة في كل أرجاء العالم، وأن يعيش التقدم والازدهار في وطنه لا أن يراه عند أولئك الغربيين الذين بنوا دولهم عن طريق سفك دمائنا ونهب ثرواتنا

• أنا قومي عربي لأني أريد التخلص من الحكام الخونة وكلاء الاحتلال الذين ما زالوا جاثمين على صدورنا

لائحة القومي العربي



طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــ 85 ـــــدد

01 كانون الثاني 2023

محتويات العدد 85 من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عــدد 85
01 كانون الثاني 2023



هل تعد دعوتنا لشطب الفرنسية من المغرب العربي تعصباً وانغلاقاً مذموماً؟

عبد الناصر بدروشي



قد تكون الفرنسية بالنسبة لشعوب العالم مجرد لغة، معرفتها تنفع والجهل بها لا يضر، ونافذة تطلعنا على واحدة من ثقافات هذا العالم كغيرها من اللغات، ولا شك في أن الانفتاح على ثقافات العالم له منافع كثيرة وهو أمر محمود.

ولكن لماذا عندما تتحدث نخبنا العربية، ولا سيما في المغرب العربي، عن ضرورة الانفتاح، يقصدون تعميم استخدام اللغة الفرنسية في المدارس ومختلف مناحي الحياة؟

هل الانفتاح على الثقافات الأخرى يعني أن نستخدم لغاتها ونتراسل ونتعلم بها؟

قد تكون الفرنسية بالنسبة لشعوب العالم مجرد لغة، ما عدا الشعب العربي، سكان المغرب العربي تحديداً.

فالفرنسية بالنسبة لنا خطرٌ داهمٌ ووحشٌ يلتهم حضارتنا ويشوه معالم هويتنا. فحين يتكلم الأبناء بلسان قتلة أجدادهم فتتغلغل فيهم حتى يصبحوا فرنسيي الهوى والهوية، وحين تتحول هذه اللغة الأجنبية (واللغة هي الوعاء الحضاري لأي شعب) إلى لغة العلم والفن والسياسة عندنا، وحين لا يتورع نخبنا وسياسيونا من استخدامها وهم الذين يفترض بهم أن يكونوا حراساً للهوية ومقوماتها، وحين تحتل هذه اللغة حيزاً مهماً في المعاملات اليومية للمواطن، وحين تعتمد كلغة رسمية تصدر بها الوثائق الرسمية والمعاملات البنكية والإدارية، يتوجب حينها أن نقرع أجراس الخطر.



منذ أن أدخلت علينا اللغة الفرنسية عُنوة وهي تحل محل اللغة العربية، ومن خلالها يعمل أعداؤنا على هدم المقومات الثقافية والحضارية لشخصية «العربي» وتحويله إلى مسخ منكسر نفسياً مشوه ثقافياً ربما يكون اسمه «أحمد» ولكنه يتحدث بلسان «فرنسوا»...

فرنسا التي تدعونا للانفتاح على لغتها، تشرف سنوياً على إقامة قمة للفرنكوفونية، أقيمت مؤخراً في 2022/11/19 في جزيرة جربة في تونس، وافتتحها الرئيس قيس سعيد، قامت بسن قانون في 4 أغسطس/ آب 1994، يهدف إلى حماية اللغة الفرنسية وتراثها، ويتركز على ثلاثة أهداف رئيسية هي:

- إثراء اللغة الفرنسية
- الالتزام باستخدام اللغة الفرنسية
- الدفاع عن الفرنسية بصفتها اللغة الرسمية للجمهورية

فرنسا التي تحارب اللهجات واللغات المحلية على ترابها تنشر لغتها عندنا ولا يتورع وزراؤنا ورؤساؤنا من استخدامها.

عربي جذوره ضاربة في عمق التاريخ يحتقر ذاته وينكر أصله ويستحي من هويته وهو الذي ملأ الكون علماً وفلسفةً وفناً وأدباً ومعماراً، يتوق لالتقاط صورة وخلفه كتلة من الحديد تسمى «برج إيفل» يرى فيها رمزاً للحضارة والرقي والثقافة... وهو الذي يقف فوق أعرق المعالم الحضارية في العالم.

ولا يقل طرح أدعياء شطب الفرنسية وتعويضها بالإنجليزية خطورةً عن طرح أنصار الفرنكوفونية، فنحن لسنا لقطاء نبحث في مخلفات البشرية عن وعاء حضاري يحتوينا، ولسنا بحاجة إلى لغة ثانية نتعلم بها وننظر إلى الدنيا من خلالها، فالشعوب المتقدمة عبر التاريخ تقدمت بلغتها، والاطلاع على المعارف والعلوم الإنسانية والانفتاح على الثقافات يكون عبر إرساء مؤسسات للترجمة تنقل خلاصة العلم إلى لغتنا فنتعلمها بلساننا ونستنير بها ونحن نعتز بهويتنا العربية.

تعتبر الترجمة أداة للتواصل مع الأمم للاطلاع على معارفهم وثقافتهم، وقد سبق للعرب في عدة مناسبات أن حققوا نهضة من خلال الاعتناء بالترجمة وقدموا عصارة العلوم



للعرب بلغتهم في سياق تمثلها وغربلتها من منظورهم، وذلك هو الفرق بين الترجمة والتعريب، ولم يعمدوا إلى نشر لغات الأمم الأخرى بيننا، ولعل أحدث تلك التجارب تجربة محمد علي باشا الرائدة.

وحين أراد محمد علي باشا تأسيس مشروع نهضوي أرسل البعثات العلمية إلى أوروبا وأسس مدرسة الألسن، وكانت مهمة المدرسة ترجمة أمهات الكتب من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية وذلك لينتفع العرب بآخر ما توصل إليه الغرب من العلم.

يجعل انقطاعُ الترجمةِ لغتَنا، فضلاً عن قلة استخدام اللغة العربية في البحث العلمي الجاد، متخلفةً عن ركب الحضارة، ويعالج هذا التخلف بالاستدراك لا بالتخلي عن لغتنا وتبني لغات شعوب أخرى عوضاً عنها.

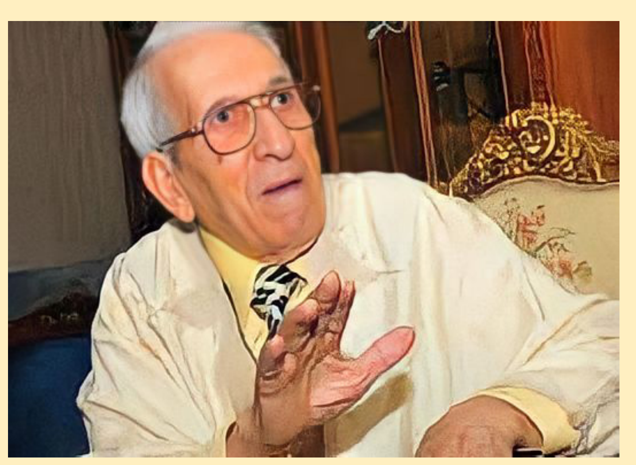
بالإضافة إلى ذلك، لا ينبغي أن ننظر إلى العملية التعليمية بشكلٍ سطحي، فهي أعمق من مجرد تلقين الطالب جملة من العلوم والمعلومات، والعملية التعليمية في الدولة ذات السيادة تعنى أساساً ببناء شخصية الطالب وصقل ملامح أبعادها الوطنية فيدرك بذلك أنه جندي في خدمة الأمة يعمل على رفعتها ورقيها، وبذلك نحمي الناشئة من أن تتحول إلى نخب مرتزقة تعمل لمصلحة من يدفع. ولعل أبرز دليل على ذلك هو أن عدد الأطباء الجزائريين في فرنسا يناهز الثلاثين ألف طبيب، وأن سبعة من كل مئة طبيب في فرنسا هم تونسيون.

في الختام نذكر بحقيقة لا يشك اثنان في صحتها، وهي أنه لم يسبق لأمة أن تقدمت وتطورت بغير لغتها القومية. ونسترجع وصية هو شي منه حين أوصى الفيتناميين بالمحافظة على لغتهم القومية مثلما يحافظون على صفاء عيونهم.


طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 85
01 كانون الثاني 2023

عروبة الجزائر في فكر الدكتور عثمان سعدي

إبراهيم حرشاوي



ينتمي الدكتور عثمان سعدي، المولود في أسرة أمازيغية سنة 1930، والمتوفى في شهر ديسمبر/ كانون الأول 2022، إلى الجيل الذي استلم مِشعل المعركة الوطنية من الحركة الباديسية المعروفة بوضعها الأسس الفكرية والهوياتية لثورة الفاتح من نوفمبر.

فمع بروز المسألة الثقافية بشكلٍ متوازٍ مع ظهور الحركة الوطنية الجزائرية في مطلع القرن العشرين، أصبح البحث عن سبل تعريف الهوية الوطنية الجزائرية وتحديد مرتكزاتها من المهمات المصيرية للنخبة المنخرطة في النضال التحرري الجزائري. وقد بلور هذا التوجه الذي ناضل سعدي في صفوفه الهوية الوطنية الجزائرية بغرض الدفاع عن عروبة الجزائر وتهيئتها للانضمام للمد القومي الوحدوي المتمثل وقتذاك بالمشروع الناصري. والتحق سعدي بحزب الشعب الجزائري الذي كان امتداداً لحزب «نجم شمال إفريقيا» المعروف بطابعه العروبي في مناهضة الفرنسة والانصهار الثقافي المفروض من طرف الاستعمار الفرنسي.

ولفهم الإشكالية الثقافية والهوياتية التي كانت تواجه الجزائر من منظور د. سعدي، منذ بروزه كمناضل مثقف إبان الثورة الجزائرية، لا بد من الوقوف عند إحدى الدراسات التي نشرها بمجلة «الآداب» الصادرة في بيروت في شهر آذار / مارس سنة 1955 تحت عنوان «مشكلة الثقافة في الجزائر»، وهي دراسة قصيرة عالج فيها سعدي كيفية قراءة المشهد الثقافي الجزائري انطلاقاً من إطار نظري بهدف توظيف مقاربات منهجية في تشخيص الواقع الجزائري المتموج على إيقاع ثورة مسلحة قل نظيرها.



يفتتح سعدي دراسته بفقرة يوضح فيها السبب التاريخي للتخلف الثقافي، إذ حمّل الأتراك مسؤولية قدوم الاستعمار الأوروبي بسبب طبيعتهم العسكرية الجلفة، إضافةً إلى اتِهامهم باستغلال الشعب الجزائري أبشع أنواع الاستغلال وخنق الحس الجماعي ما أدى إلى تفشي الانعزالية والفردانية في أوساط الجزائريين.

ومع مغادرة «الداي» عقب اقتحام قوات الاستعمار الفرنسي للجزائر، أظهر الشعب الجزائري استماتةً في المقاومة بفضل ماضيه المجيد ومقومات الصمود التي استمدها من التضاريس الوعرة والمناخ شديد التقلب.

من جهةٍ أخرى، ينظر سعدي إلى فرنسا من زاويتين متناقضتين: الزاوية الإنسانية والزاوية البدائية.

فالفرنسي بالنسبة لسعدي يدّعي الحرية والديموقراطية في حدود وطنه فحسب، وبالتالي تصبح مبادئ «الكونيّة» و«التنوير» للثورة الفرنسية التي يتغنى بها المستعمر نسبيةً من حيث بعداها المكاني بالدرجة الأولى والزماني بالدرجة الثانية. ثم يؤكد سعدي أن الإنسان الفرنسي ما زال يعاني من الرواسب البدائية للعهد الغالي (نسبةً للغاليين Les Gaules)، ويدلل على ذلك بالوحشية التي تعامل بها إيف شاتنيو إبان إشرافه على مجزرة سطيف سنة 1945.

ينتقل سعدي بعد ذلك إلى وصف الثقافة الوطنية لدى الأحزاب السياسية، ويختزل الأحزاب الوطنية إلى ثلاثة تنظيمات: حزب الشعب الجزائري، حزب البيان الجزائري، وجمعية علماء المسلمين. إذ ينعت سعدي حزب الشعب الجزائري بالحزب الوطني الذي يسعى إلى تحقيق «السيادة الجزائرية التامة»، ويضيف أن هذا الحزب تمكن من زعزعة «الرهبة الاستعمارية من نفوس الجزائريين»، في حين يرى سعدي القيمة الإضافية لحزب البيان في البعد التثقيفي والتوجيهي، إذ استطاع هذا الحزب، بحسب رأي سعدي، أن ينقل الثقافة والحضارة الفرنسية من «دون أن يَحول التعصب والكراهية للفرنسيين بين الشعب وبين هذه الاستفادة».

أما «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، فقد ثمّن سعدي دور مؤسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس في «إحياء الجانب العربي في الشخصية الجزائرية»، وتطهير الإسلام



من «الخرافات التي كانت تتسرب من خلالها مطامع الاستعمار».

أما في محاولة سعدي تعريف أركان البنية التاريخية للثقافة في الجزائر، فقد أطلق عليها تسمية «القوى الفعالة التي تضبط التوجيه الثقافي»، وقد قسّمها إلى ثلاثة أقسام: رواسب، وتيارات خارجية، وقوى دافعة.

ومن الواضح أن قراءة سعدي للبنية التاريخية للثقافة الجزائرية تأثرت بمدرسة الحوليات (l' école des annales) المعروفة بتحليل الظواهر التاريخية على المدى الطويل، وبتضمين جوانب عديدة من تاريخ الإنسان والمجتمع، على عكس منهج «تأريخ الأحداث» (histoire événementielle) الذي يحصر كتابة التاريخ في سرد أحداث سياسية أو عسكرية بشكلٍ حرفي من دون قراءة سياقية أو جدلية ممنهجة.

يعرّف د. سعدي القوى الفعالة بـ«القوى الطبيعية أو الزمانية أو الإنسانية التي تتحكم في نفسية الفرد ووجدانه وتفكيره». ويرى سعدي أن هذه النفسية هي المركز الذي تتفرع منه «الاتجاهات الثقافية في تاريخ الأمة». ويمكننا باختصار تسليط الضوء على هذه القوى الفعالة بتعريفها بناءً على الوصف الذي منحه سعدي لكل منها على حدة.

يستهل د. سعدي شرح منهجه بمفهوم «القوى الراسبة»، وهي القوى الكامنة التي يستدخلها الفرد من طبيعة الأرض أو المناخ أو التاريخ (الامتداد الزمني). ويشير سعدي في هذا الصدد إلى المناخ المتقلب الصعب الذي ترك في نفوس الجزائريين نوعاً من الثبات والعناد.

بخصوص الرواسب التاريخية، يرى سعدي أن مراحل تكوينها تعود إلى ذاكرة الفرد عن المراحل التي تمر بها الأمة على المدى الزمني الطويل عبر محطات مفصلية، إذ تكون طبيعتها، في معظمها، بطولية (stations héroiques). ويضيف سعدي على هذا الجانب بعداً حضارياً يتصل بالتجارب الحضارية التي عرفتها الجغرافيا الجزائرية على امتداد تاريخها. وتكمن قوة هذا البعد الحضاري في تزويده طبيعة الشعب بهوية يصعب التخلي عنها أو نزعها.

أما القوى الثانية، فيسميها سعدي «التيارات»، وهي عبارة عن المؤثرات الخارجية التي تؤثر في التطور الطبيعي للفرد والمجتمع، وينسبها د. سعدي في المرحلة المعاصرة إلى



دور الاستعمار الفرنسي في تحييد كل المجالات الحيوية في المجتمع الجزائري كالاقتصاد والتعليم.

ثم يميط د. سعدي اللثام عن القوى الثالثة، وهي القوى الدافعة (les forces centrifuges) التي تمثلها شخصيات استطاعت أن توجه المجتمع ضمن تطوره التاريخي الطبيعي من دون إحداث قطيعة مع الماضي، ويشير سعدي في هذا المضمار إلى شخصيات فكرية ونضالية من طراز الشيخ عبد الحميد بن باديس ومصالي الحاج ومالك بن نبي.

لم يرَ د. سعدي أي تناقض بين هذه القوى الثلاث، بل وظفها ضمن صيرورة تاريخية جدلية، أو بمعنى أدق، أن القوى الدافعة عززت إلى حدٍ كبيرٍ القوى الراسبة في مواجهة التيارات الخارجية، جاعلاً من هذه الصيرورة التاريخية الديناميكية الرئيسية التي تشحذ الاتجاهات الثقافية وهوية المجتمع.

في سياقٍ متصل، كان سعدي منخرطاً – كما ذكر أعلاه – في المعركة الثقافية منذ مرحلة مبكرة من حياته بحكم ترعرعه في مدارس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر. وتجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبه أحد مؤسسي هذه الجمعية، وهو المؤرخ أحمد توفيق المدني، في التصدي مع بقية القيادات المثقفة في الجمعية، وعلى رأسهم البشير الإبراهيمي وابن باديس، للمحاولات الاستعمارية لكتابة تاريخ المنطقة من منطلقات تنفي عروبتها القديمة.

وفي هذا الإطار تكمن أهمية الكتاب الذي ألفه أحمد توفيق المدني سنة 1927، أي قبل إنشاء جمعية العلماء المسلمين بأربع سنوات، تحت عنوان «قرطاجنة في أربعة عصور: من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي»، حيث خصص فقرات عديدة من الكتاب للحديث عن الأصول الكنعانية للمكوّن الأمازيغي (انظر مثلاً مدخل «أصل البربر» في الصفحة 15)، مستنداً بذلك على مراجع قديمة وحديثة كمقدمة ابن خلدون وبعض الأنثروبولوجيين ممن نسبوا أصول الأمازيغ إلى المشرق العربي.

ما يهمنا هنا هو التأكيد على أن مجهودات د. سعدي فيما بعد هي حلقة متصلة بهذه السردية المساهمة في تعريف عروبة الجزائر منذ عصورها القديمة. فمن المعروف أن الاستعمار الفرنسي في المغرب والجزائر كان يطمح إلى «استرجاع شمال إفريقيا»،

بمعنى الرجوع بها إلى الوضعية التي كانت عليها قبل الإسلام، حين كانت المنطقة خاضعة للاحتلال الروماني.

يظهر إذن أن الاستعمار الفرنسي هندس سياسته طبقاً لمبادئ هوياتية مختلفة، أبرزها: أولاً، التشكيك في وظيفة الإسلام واللغة العربية الفصحى في صهر مكونات بلدان المغرب العربي وربطها بالمشرق. ثانياً، التشكيك في الوحدة الإثنية والثقافية والتاريخية لمكونات المغرب العربي. ولذلك، بالنسبة لسعدي ولكل منتسبي التيار العروبي-الإسلامي المناهض للفرنكوفونية والنزعة البربرية، كانت معركة التعريب معركة لا تقل أهميتها عن باقي المعارك مع المستعمر، إدراكاً منهم أن قضية استرجاع الهوية الوطنية في صيغتها القومية والحضارية تخضع إلى معادلة وجودية.

في هذا السياق، كتب المدير العام لجريدة «المجاهد» محمد الميلي في إحدى افتتاحياتها في مايو/ أيار سنة 1968 أن «الخطر يبدأ دائماً بعد الاستقلال. عندما يزول ذلك الحاجز البارز الذي يفصل ما بين الثورة والفكر الغربي. عندما تهزم الثورة الوجود العسكري للاستعمار. عندئذٍ يتحرك الجهاز الثقافي للمهزوم، مما يؤدي إلى انتصاره في المعركة الحضارية بعد أن يكون قد هزم في المعركة السياسية».

ومن هذه الخلفية دفع د. سعدي النقاش الوطني الجزائري بعد الاستقلال نحو ضرورة إعادة الاعتبار للغة القومية ضمن المشروع التنموي الشامل على غرار النماذج النهضوية التي تبنتها بعض دول جنوب الكرة الأرضية وشرقها، ولا سيما الآسيوية منها (اليابان والصين وكوريا وفيتنام).

وبالنسبة لكيفية تناول سعدي هذا الموضوع يمكننا العودة إلى دراستين نشرهما سنة 1984 في مجلة «العربي» بعنوان «كيف نخرج من المأزق الثقافي؟»، و«الثورة الفيتنامية وشروط النهضة». إذ يتعرض سعدي في المقالة الأولى إلى طرق اكتساب علوم العصر عن طريق نهجين: النقل الفوتوغرافي من جهة، وأسلوب الانفتاح على العلم لدى الأمم المتطورة واكتسابه وتمثله من جهةٍ أخرى. ويؤدي النقل الفوتوغرافي برأي سعدي إلى تعزيز النمط الاستهلاكي، بينما يستحسن سعدي العملية الثانية ويقارنها بعملية الهضم في أجسامنا بقوله: «يمكن لأمة أن تمضغ العلوم بلغةٍ أجنبية. ويمكن أن تهضمها إلى حدٍ ما



بلغةٍ أجنبية. لكن لا يمكن لها أن تتمثل هذه العلوم المستوردة إلا بلغتها القومية».

ومقصد سعدي أن الانفتاح ينبغي أن يكون على جل اللغات الحية، لا على لغة المستعمر فحسب، في حين يؤكد على لزوم إنشاء لجان وأكاديميات علمية لتعريب المصطلحات العلمية ومتابعة حركة البحث العلمي في العالم.
يركز د. سعدي، في الدراسة الثانية، على ما يسميه «المعجزة الفيتنامية» القائمة على الانتصار على لغة المستعمر الفرنسي بتطبيق «الفتنمة» على التعليم والإدارة وسائر مرافق فيتنام بعد الاستعمار. ولم يكتفِ سعدي بالبعد الهوياتي فحسب، بل أدرك أن الفتنمة كان لها الفضل في تحقيق وحدة الشعب الفيتنامي جنوباً وشمالاً، ملوحاً بذلك أن عملية تعريب الأقطار العربية المستقلة ستساهم بدورها في تحقيق الوحدة العربية.



استكمالاً لهذه الحلقة التي دعا فيها د. سعدي إلى ضرورة وضع اللغة العربية الفصحى في قلب مشروع التنمية الوطنية، قام سعدي بنشر كثيرٍ من الدراسات والمقالات عن الجذور العربية القديمة للأمازيغ وللهجات الأمازيغية. يمكن الإشارة، في ضوء ذلك، إلى أحد أهم نتاجاته في هذا الموضوع، وهو كتاب «البربر الأمازيغ عرب عاربة، وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ»، الصادر سنة 2018، وهو عبارة عن نسخة معدلة لكتابه «عروبة الجزائر عبر التاريخ» الذي طبع مرتين، الأولى سنة 1983، والثانية سنة 1985. وما يزال هذا الكتاب محوراً لمساجلة ساخنة مع ذوي النزعة البربرية، ولم تختفِ أصداؤه حتى اليوم. كذلك، يمكن اعتبار دراسة د. سعدي «قراءة تصحيحية في التاريخ»، المنشورة سنة 1992 في مجلة «الكلمة»، الصادرة عن الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، ملخصاً مفيداً عن الجذور التاريخية للأمازيغ.

ويتبين لنا عبر مضامين نصوص د. سعدي المتعلقة بهذا الموضوع تركيزه على الفترة القرطاجية في شمال إفريقيا بصفتها محطة حضارية جوهرية في تاريخ المغرب العربي

القديم، مع بعض الإشارات إلى الحقبة المصرية القديمة. ويتضح لنا أن أحد المداخل لإثبات عروبة البربر في الفترة القرطاجية هي الطقوس والممارسات الثقافية التي كانت تجري باللهجة البونيقية، أي النسخة الإفريقية من الفينيقية، التي أصبحت لغة مشتركةً (lingua franca) في تلك الفترة. وهي، بالمناسبة، اللغة التي كانت تسيّر بها دواوين الممالك الأمازيغية وإداراتها، بما فيها مملكة نوميديا في عهد ماسينيسا، إذ ذهب بعض المؤرخين، على غرار غوستاف لوبون مثلاً، إلى أن الأمازيغية انشقت من البونيقية. ورسخّت هذه المعطيات إيمان د. سعدي أن العنصر الأمازيغي جزءٌ من الإرث العربي القديم، مما يجعلهم جزءاً أصيلاً من الحوض الحضاري الممتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي.

وما يمكن إضافته على هذا الصعيد هو دراسة د. سعدي للبعد اللغوي لكشف القواسم المشتركة على مستوى التركيب النحوي والصرفي والدلالي بين الأمازيغية (اللهجة الشاوية التي يتقنها د. سعدي) والعربية الفصحى في «معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية» الصادر سنة 2007. وقد جاء د. سعدي هنا ببعض الآليات المفاهيمية التي يجب أخذها في الحسبان عندما يدور الحديث عن «البربرية والعربية». فمصطلح العربية يعني به د. سعدي العربية العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم، أما مصطلح العروبية فيشير إلى اللغات العربية القديمة التي تسمى خطأً «اللغات السامية».

يفرّق د. سعدي، بالمقابل، بين البربرية من جهة، والنزعة البربرية من جهةٍ أخرى. فالأولى عنصرٌ من عناصر الهوية المغاربية، بينما الثانية ترمز للمشروع الاستعماري الرامي إلى إلغاء عروبة شمال إفريقيا واستبدالها بالبربرية المزيفة لصالح الهيمنة الخارجية.

ومن بين الملاحظات المهمة التي أثارها د. سعدي في معجمه هي أصالة عروبة الأمازيغية بعدما تأكد بأن الكلمات الأمازيغية لم تؤخذ من العربية بالجوار. فالإنسان الأمازيغي، يقول د. سعدي، «كان يعرف المرأة والأرض والحيوانات الموجودة بالمعجم قبل مجيء العربية العدنانية إلى شمال إفريقيا».

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 85
01 كانون الثاني 2023



في الختام، لا بد من الإشارة إلى مواقف د. سعدي القومية الوحدوية التي لا تشوبها شائبة. ففي دراسته «عن دور الشعر في الجزائر في بث الوعي القومي»، التي نشرها في كتاب «دور الأدب في الوعي القومي العربي» سنة 1980، أضاء سعدي على عظمة العمل من أجل الوحدة العربية، واصفاً إياه أنه «أشرف عمل يقوم به عربي». كما أكد سعدي على انسجام مبدأ الوحدة العربية مع وحدة العالم الإسلامي. فالوحدة الإسلامية تمر، بالنسبة لسعدي، «بالضرورة عبر الوحدة العربية»، في حين يرى أن تجريد الوحدة العربية من البعد الإسلامي عمل غير حكيم وغير واقعي. فلا يُذكر اسم د. عثمان صالح سعدي، رحمه الله، إلا مقترناً بالقومية العربية وبقضية الدفاع عن عروبة الجزائر على وجهٍ خاص، بالرغم من التزاماته كسفير للدولة الجزائرية، لكن لم تشغله تلك الالتزامات كما شغلته قضية عروبة شمال إفريقيا وتفنيد أطروحات أعدائها في الداخل والخارج.

المراجع:

- عثمان سعدي، مشكلة الثقافة في الجزائر، مجلة الآداب، العدد الثالث، بيروت، 1955.

- عثمان سعدي، كيف نخرج من المأزق الثقافي، مجلة العربي، العدد 303، الكويت، 1984.

- عثمان سعدي، الثورة الفيتنامية وشروط النهضة، مجلة العربي، العدد 307، الكويت، 1984.

- عثمان سعدي، قراءة تصحيحية في التاريخ، مجلة الكلمة، العدد الثاني، الجزائر، 1992.

- عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ، دار الأمة، الجزائر، 2018.

- عثمان سعدي، معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية)، منشورات مجمع اللغة العربية، طرابلس الغرب، 2007.

- عثمان سعدي، دور الشعر بالجزائر في بث الوعي القومي في (ندوة: دور الأدب في الوعي القومي العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1980.

رسالة إلى الرئيس قيس سعيد من لائحة القومي العربي



إلى السيد قيس سعيد رئيس الجمهورية التونسية؛

قبل بضع ساعات من انتخابك رئيساً للتونسيين قلت بالحرف الواحد: «إن التطبيع مع كيان شرد شعب بأكمله واغتصب أرضه هو خيانة عظمى...».

صدّقك أغلب الناخبين، ورأوا فيك فارس هذا الزمان، وألهبت كلماتك حماسة الجماهير، ولم يتصور ناخبوك بأن خطابك كان مجرد كلمات جوفاء للدعاية ولحصد أصوات الناخبين فحسب.

استمرت الأنشطة التطبيعية على ما كانت عليه، لا بل تصاعدت وتيرتها، ومنذ أول يوم لك كرئيس للجمهورية، وتتالت الخيانات العظمى في الجمهورية التي تترأسها واحدة تلو الأخرى، ولم نسمع لك صوتاً ولم تنبس ببنت شفة.

بعد مرور يوم واحد على تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهورية، شارك أستاذان صهيونيان في تنشيط ندوة «علمية»، وقلنا لن نحسبها عليه، فالرجل لم يستقر بعد على كرسي الحكم.

في تاريخ 2020/01/26: (بعد مرور 96 يوماً على تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهورية):

لاعب تنس صهيوني يشارك في دورة للتنس في تونس تحت حماية أمنية مشددة.

في تاريخ 2020/02/05 (بعد مرور 106 أيام على تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهورية):

رابطة التنس التونسية ولاعبتا التنس أنس جابر وشراز البشري يطبعون مع الكيان الصهيوني عبر قبولهم اللعب مع صهاينة خلال دورة الاتحاد الدولي للتنس التي أقيمت في هلسنكي، وأنس جابر تحظى بوسام من رئيس الجمهورية بعد تطبيعها بدل محاسبتها.

في تاريخ 2020/02/07 (بعد مرور 108 أيام على تولي قيس سعيد منصب رئيس



الجمهوريـــة):

وزارة الشؤون الخارجية، التي تقع تحت سلطة رئيس الجمهورية وإشرافه تعزل المنصف البعتي مندوب تونس لدى الأمم المتحدة على خلفية سعيه لاستصدار قرار يدين صفقة القرن والولايات المتحدة الأمريكية.

في تاريخ 2020/02/10 (بعد مرور 111 يوماً على تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهوريـــة):

اللجنة الأولمبية التونسية تصدر بلاغاً تعتبر فيه أن مناهضة التطبيع الرياضي هو إقحام للسياسة في الشأن الرياضي وتتعهد بمواصلة التطبيع وتتحدى التونسيين.

في تاريخ 2020/02/16 (بعد مرور 117 يوماً على تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهوريـــة):

بعد الإعلان عن صفقة القرن، المغني التونسي محسن الشريف يتحدى التونسيين ويشارك في إحياء حفل موسيقي في فلسطين المحتلة.

في تاريخ 2022/04/26 (بعد سنتين ونصف من تولي قيس سعيد منصب رئيس الجمهوريـــة):

وزير الدفاع التونسي عماد مميش يشارك جنباً إلى جنب مع وزير الحرب الصهيوني غانتس في اجتماع لدول أعضاء حلف الناتو والدول غير الأعضاء التي تتمتع بصفة الشريك المميز.

هذا بالإضافة إلى استمرار الصهيوني روني الطرابلسي على رأس وزارة السياحة، وهو الذي أشرف على إدخال صهاينة إلى تونس بجوازات سفر «إسرائيلية» من دون أي اعتراض أو مقاومة من طرف رئيس الجمهورية الذي يرأس مجلس الأمن القومي.

أخيراً، وليس آخراً، المكتبة الوطنية (وهي مرفق عمومي) يتم توظيفها في عدة نشاطات تطبيعية تؤثثها مديرتها المتصهينة رجاء بن سلامة، وآخر هذه النشاطات كان في تاريخ الأربعاء 09 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، وكانت ندوة بعنوان «لنتكلم اللغات المنسية»، وهي دعوة لإحياء ما يسمى «اللغة اليهودية التونسية» مع عرض فيلم «صقليو إفريقيا – تونس أرض الميعاد».

2022/11/07 هو تاريخ الطامة الكبرى، حين أصبح التطبيع على أعلى مستويات الحكم في الدولة، حين تبادلت رئيسة حكومة قيس سعيد الابتسامات مع إسحاق هرتزوغ رئيس



الكيان الصهيوني وجمعتها معه محادثات ودية في جو لطيف خلال قمة المناخ في شرم الشيخ.

كل هذا الكم من التطبيع مر من دون محاسبة، ولم يقم الرئيس بأي ردة فعل أو قول لإدانة ما وصفه البارحة بالخيانة العظمى.

السيد الرئيس قيس سعيد، لماذا هذا الصمت المريب تجاه الجرائم والخيانات التي ترتكب في عهدك، وأنت من رفعت شعار «التطبيع خيانة عظمى»؟! ألم يحن الأوان لأن تتخذ خطوات عملية وتترجم شعاراتك إلى أفعال، فصمتك يعتبر مصادقة على أفعال المطبعين.

لائحة القومي العربي

#التطبيع_خيانة

(نشرت في 2022/11/17، وأعادت «الشروق» التونسية نشر أجزاء منها، ونعيد نشرها هنا كبيان لائحي لقيمتها التوثيقية)

الغرب يدعم المثلية، والمقاومة هي المستهدف

كريمة الروبي

كنا نشاهد في الأفلام القديمة، وحتى وقت قريب (مرحلة ما قبل نتفليكس)، السخرية من ذلك النوع من الرجال أصحاب الأيدي الناعمة الذين يتصرفون بميوعة وليس لديهم عمل سوى الرقص والتنزه وصرف الأموال التي لم يتعبوا في جمعها، مثل (لوسي ابن طنط فكيهة) في فيلم (إشاعة حب)، والذي كان يظن زوج خالته (الفنان يوسف وهبي) بأنه أنثى حتى أكدت له ابنته أنه (ولد)، واستكمل الفنان يوسف وهبي سخريته من هذا النوع أيضاً في فيلم (البحث عن فضيحة) حين كان يوبخ (ريكو) ويقول له (افرد طولك وخلي عندك نخوة رجالة)، فقد كان لا يجيد سوى الرقص ويخشى الذهاب مع ابنة خالته للنادي

لمشاهدة مباراة في الملاكمة لأنه لا يستطيع – بمشاعره المرهفة - أن يرى قتالاً أمامه. كان هذا النموذج مرفوضاً ومنبوذاً ومدعاةً للسخرية في مقابل احترام وتمجيد صورة الشاب المكافح الصلب الذي لديه مروءة ونخوة، وهو النموذج الذي تحاربه (نتفليكس) بتصعيد النموذج الآخر وتقديم أعمال للتعاطف معه.

هذا التوجه ليس حكراً على الفن فقط بل بات توجهاً عاماً لدى الغرب، وما الفن سوى انعكاس له، وأصبح التركيز بهذه الصورة الفجة على قضية دعم المثليين (الشواذ)، واعتبارها القضية الأهم، فإذا أراد أحدهم أن ينال رضا الغرب ودعمه فعليه بدعم المثليين وإلا سيُحارب.



وقد تابعنا جميعاً ذلك الإصرار من لاعبي المنتخب الألماني على ارتداء شارات دعم المثلية (الرينبو) قبل مباراتهم مع منتخب اليابان خلال منافسات كأس العالم بقطر، وحين تم منعهم من ذلك قاموا بالتصوير وقد وضعوا أيديهم على أفواههم باعتبار أن منعهم هو نوع من كبت الحريات. كذلك يقف النائب البريطاني جون نيكولسون ليصف بفخر البرلمان البريطاني بـ«الأكثر مثلية في العالم». كذلك وصل الأمر إلى إنتاج أفلام كارتون للأطفال ذات محتوى يدعم المثليين.

يرجع البعض ذلك الحماس الغربي لتلك القضية إلى رغبة الرأسمالية في خفض عدد السكان، وهو السبب الذي من أجله أيضاً تنتشر الأمراض والأوبئة والصراعات في العالم، ولكن يبدو أن هذا السبب، وإن كان وجيهاً، ليس السبب الوحيد لدعم المثلية في العالم، فانتشار تلك الأفكار بهذه الصورة هدفه أيضاً أن ينتهي من العالم نموذج الإنسان القوي المقاتل الذي لديه مروءة ونخوة تجعله يضحي بنفسه في سبيل شرفه وشرف أمته ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة ليحل محله نموذج الإنسان الجبان الذي يخشى المواجهة.

فقبل انتشار فكرة دعم المثليين كان هناك توجهٌ لمهاجمة كل من تصدى للغرب وواجه مخططاته، حتى لا يظهر من جديد من يقف ضد مشاريعهم الاستعمارية من يؤمم القناة التي كانوا يسيطرون عليها، ويواجه هزيمته العسكرية بصلابة، وبدلاً من الاستسلام يقف معلناً: (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة)، من يفاوضونه وهو مهزوم فيرفض كل مساومة لا تعيد الحقوق كاملة بغير انتقاص، وتمنعه مروءته من التخلي عن أبناء عروبته، فكان مطلوباً تشويهه ونعته بصفات مثل (القائد المهزوم) و(مسدس الصوت)

و(الجعجاع)، مقابل تمجيد نموذج (املأوا الأرض بتراتيل السلام) الذي رفض أن يقسو على عدوه في المعركة انتصاراً لقيم (السلام).

فالمقاومة في أي مكان في العالم هي المستهدف الأول من تلك القضية التي يستميت الغرب في دعمها، هم يسعون لإنتاج أجيال من معدومي النخوة لا يعرفون معنى الوطنية والتضحية والفداء، أجيال تستسلم بكل سهولة بلا أية مقاومة ولديهم الاستعداد لتقبل التعايش مع مغتصب أرضهم. فالفرد المتفلت من أي مرجعية قومية أو حضارية، والذي تشكل نزواته مرجعيته الوحيدة، هو فردٌ مفككٌ لامنتمٍ، متمردٌ بلا قضية، ومثل هذا الفرد لا يكون مقاوماً، ناهيك عن تبنيه لقضايا أمته ووطنه وأي قضية جمعية تتجاوز قوقعته الخاصة.

هذا هو ما تدعو إليه الليبرالية، والأمر لا يقتصر الأمر على المثلية، بل يتعداه إلى تكريس «الإنسان-الفرد» مرجعيةً، أي يتعداه إلى تفكيك المجتمع إلى ذرات، وهو ما يعنيه تسفيه مرجعياته الأخلاقية والتاريخية، واختراق الهوية في العمق، ومنها بُعد الذكورة والأنوثة، وكم من فتاةٍ أكثر مروءةً ونخوةً واستبسالاً وشرفاً من بعض الذكور، فالمستهدف هو تلك القيم بالذات، في المجتمع ككل، لا لدى الذكور فحسب. كما أن ما يلي «الوعي» الجندري والمثلي كثيراً ما ينتقل إلى بعدٍ سياسي، التطبيع نموذجاً، من خلال المنظمات غير الحكومية الممولة أجنبياً و«الفن» و«الثقافة» التي تروج لمثل هذا «الوعي».

شتان ما بين المنتخب الألماني، الذي سعى إلى الترويج للمثلية في مباريات كأس العالم، وبين المنتخب المغربي الذي صلى في الملعب قبيل المباراة، وفي الحالتين تتجاوز الدلالات البعد المباشر إلى الفرق بين نمطين: الانفلات الليبرالي الفرداني المعولم من جهة، ومقاومة الانجراف في مثل ذلك الانفلات من جهةٍ أخرى.

إنها معركة تتجاوز الهوية الفردية كمسألة خيار، كما يحاول أن يجعلها الليبراليون، إلى هوية مجتمعات بأكملها، ولذلك نرى روسيا تخوض تلك المعركة والصينَ وشعوباً كثيرة حول العالم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 85 ـــدد
01 كانون الثاني 2023



الأمة العربية: درسٌ في علم الاجتماع

بشار شخاترة

تدهش الدنيا هذه الأمة العظيمة، الأمة العربية بعبقريتها الفطرية وبمخزونها القومي وشعورها بوحدتها ووجودها الأصيل بين أمم الدنيا، ففي كل مفصل تجدها كالفارس في مرويات الشعر العربي القديم حين كانوا يمتدحون فارساً بوصفه العطوف عند الكر، وهو الفارس يبادر بحملته على الأعداء في لحظة التراجع، قالباً مصير المعركة ومحولاً الهزيمة إلى نصر، كما الأمة العربية ما إن يغفو ليل أعدائها على حلم تمزقها وتذهب بهم أحلامهم بأنها أمست أثراً بعد عين، حتى يفيقوا مذعورين على صحوتها وتأجج مشاعر العرب القومية.



على إثر مونديال قطر لكرة القدم، عشنا عرساً قومياً عربياً ومشاعر قومية جياشة هتف فيها كل بيت عربي لفرق كرة القدم العربية المشاركة في البطولة، وكان نصيب منتخب المغرب الذي تأهل لأدوار متقدمة نصيب الأسد من التشجيع، حتى أمسى كل عربي من المحيط إلى الخليج مغربياً يرفع علم المغرب في كل الميادين العربية، ففي تلك اللحظة كان المغرب وعلمه هو العرب وعلم العرب، حتى العرب في المهجر ملأوا مدن الغرب بالرايات المغربية، لقد خلع العرب المتحمسون عباءة التجزئة وصدحت حناجرهم بالهتاف لفريق واحدٍ رأوا فيه منتخبهم وفريق وحدتهم، وأعلام فلسطين تزين المدرجات والساحات قاسماً مشتركاً آخر بين الجماهير، في رابط فطري متأصل ساوى بين عروبته وقضيته المركزية فلسطين، ففلسطين عربية لا صهـ.يـ.ونية ولا يـ.هـ.ودية ولا «إبراهيمية» ولا «مشرقية».

الشعور القومي تقدمَ وفرض حضوره رغماً عن أنف الإمبريالية وأنف الرجعية العربية وأنف الصـ.هـ.اينة واليـ.هـ.ود، فالشحن الطائفي لم يكن سؤالاً ذا بال في ضمير الناس المتحمسة ولو لنصرٍ بسيطٍ حتى في كرة القدم، فلم يكترث من هتف للمغرب إن كانت المغرب مسيحية أم مسلمة، سنية أم شيعية، مشرقية أم مغربية. كان يكفي أن كلمة السر هي العروبة تجمعنا، فيعطيك العرب درساً وينصبون أنفسهم عليك معلماً بأننا رغم كل ما بنا كنا وما زلنا عرباً، منذ أن مزقتنا التجزئة وقبل أن تنهار دولتنا على يد الغزاة، فهذا

شعبٌ يقول لك إن بوصلته عربية وإبرة هذه البوصلة قطبها ومحور انجذابها فلسطين، وإن ما تراه غبار التجزئة العالق يحتاج إلى لمسة حانية حتى ينجلي لمعان معدنه الأصيل.

إنّا من المؤمنين بأن العرب أمة متفردة بخصائصها، ومن المؤمنين أنها علم اجتماع مستقل بذاته، قلبت مفاهيم علم الاجتماع الغربي والأيديولوجيا الماركسية في نشوء الأمة والقومية، وتبرهن الأمة العربية أنها أمة تشكلت واستقر بنيانها منذ أقدم العصور، وليست أمةً في طور التكون، كما يزعم علماء الاجتماع الغربيون معللين مزاعمهم بأن العرب لم يحققوا قواعد الغرب في نشوء الأمة والقومية، لأنهم لم يحققوا ثورتهم الصناعية ولم تتشكل الطبقة البرجوازية التي يقع على كاهلها توحيد السوق القومية، فلم يتكلف علم الاجتماع الحديث عناء دراسة السمات الخاصة للأمم خارج الإطار الأوروبي للتشكل القومي للأمم إلا على سبيل الصدف، فالأمة العربية نموذج فريد في تشكل الأمة وتبلور قوميتها وشعورها القومي، وهذا يعكس تقصداً غربياً من جهة، وعنصرية وتكبراً من جهة أخرى لدى الغرب.

فالفكر الغربي عموماً سايره في نهجه الفكر الماركسي، من جهة مناقضة، في تحليل نشوء القوميات بالاستناد إلى مرجعية أوروبية في الدراسات الاجتماعية المتعلقة بتشكل القوميات، ربطاً لذلك بالسوق وحاجاته وثورته الصناعية، متغافلين أو متعالين عن حقيقة أن أوروبا كانت من آخر الواصلين إلى هذا الطور الاجتماعي في تطور المجتمعات الإنسانية نحو النزوع القومي في حقل البناء الاجتماعي.

فالعروبة، كمصطلح موافق لمفهوم القومية، هي المعبر عن الأمة العربية التي تكونت منذ أقدم العصور واستمرت عبر تاريخ طويل ومندمج كانت اللغة العربية من أعظم ركائزه، وتعمقت بفعل الإسلام الذي هضمه العرب وتمثلوه في شعرهم القومي وفي تعريب الإسلام لا أسلمة العروبة، وفي سياق متفق، نجد أن المسيحية العربية لا يغيب عن وجدانها أن المسيح ابن هذه الأرض تكلم بمفرداتها وانطبع بطابعها في إطار رسالة هذه الأرض إلى الدنيا التي صدرت لها أصدق معاني الإيمان، وأكثرها وأقربها من حقيقة المؤمنين في هذا الكون.

ولأنها أمة ما زالت تتمسك بإنسانيتها، فما برحت الأسرة لبنتها الأولى للاجتماع الإنساني التي تتسم بالدفء والتراحم، تبني عليها انتماءها الطبيعي إلى أمة العرب التي تجمع نسيجها روابط معقدة متفاعلة من روابط الدم إلى رابطة اللغة إلى الدين إلى التاريخ المشترك والمصير المشترك إلى مقارعة المنافسين، كل هذه المتفاعلات في مفاعل اجتماعي وإنساني وجغرافي وتاريخي صهرت جميعها في سبيكة نفيسة اسمها العروبة، فهذه الروابط حاضرة في وجدان العربي بدءاً من الأسرة في مرويات متواترة حيناً



ومدونـة حيناً محفورة فـي الوعـي واللاوعـي الجمعـي، فـإذا غـاب الوعـي العربـي لأي سـبب ظهـرت عروبتـه فـي لا وعيـه كسلوك فطـري، نحـن قـوم نتعلم عروبتنـا كمـا نتعلم الرضاعـة بالفطـرة حيـن الـولادة.

فمـا بيـن الاحتفـاء بنصـرٍ فـي لعبـة رياضيـة وبيـن مأسـاة وجـرح نـازف عمـره قـرن اسـمه فلسـطين، نجمـع أفراحنـا وأحلامنـا فـي لحظـة واحـدة، لا نبالـغ إن قرأناهـا فـي حقـل علـم النفس أنـه لـن يهـدأ لنـا بـال حتـى تكتمـل فرحتنـا بطـرد الغـزاة، وتحريـر مغتصباتنـا. لـم يتذكـر أحد «السـلام الإبراهيمـي» ولـم يحفـل أحـد بـه ولا بمـن أقامـه، كمـا غابـت عـن وعـي الشـعب اتفاقيـات العـار مـن كامـب ديفيـد إلـى أوسـلو إلـى وادي عربـة. لـم يتذكـر أحـد، فـي إطـار تأجـج المشـاعر القوميـة، سـوى فلسـطين، أمـا السـلام وعرابـوه فإلـى مزابـل التاريـخ، فحتـى قطـر التـي نظمـت البطولـة فتحـت أبوابهـا للصـ.هـ.اينة ليعلمـوا حكامهـم أن أحداً لـم يتحمـل وجـود المجرميـن، فحتـى لا تضيـع الحقيقـة فـإن قطـر قدمـت، مـن ضمـن عرضهـا لاسـتضافة البطولـة، حلمهـا بـأن يتنافـس فريـق الغـزاة المحتليـن الغاصبيـن (إسـرائيل) مـع الفـرق العربيـة فـي إطـار الرياضـة التـي تجمـع الأمـم تحـت مظلـة المحبـة والسـلام، وهـذا شـكل مـن أشـكال اسـتغفال الأمـم تحـت شـعار الرياضـة والـروح الرياضيـة وعـدم تسـييس الرياضـة.

نسـتغل الحـدث الرياضـي الـذي انتهـى منـذ أيـام لإظهـار حقيقـة تجلـت بشـعور العـرب بقوميتهـم واجتماعهـم علـى قاسـم مشـترك فـي إطـار لعبـة كـرة قـدم، مـا نطمـح إليـه أكبـر وأعمـق وأهـم مـن كـرة القـدم، ولكـن فـي مسـاحة السـواد القاتـم، والتيئيـس المقصـود والنيـل مـن عزائـم الأمـة العربيـة يهمنـا أن نبـرز كل حـدث مهمـا صغـر شـأنه أو كبـر يؤكـد علـى أننـا مـا نـزال موجوديـن، وأننـا لـم نغـادر الدنيـا والتاريـخ، وأننـا فـي فسـحة الحلـم نتطلـع إلـى غـدٍ أكثـر إشـراقاً، وإلـى أمـلٍ، وإن طـال ليلـه، سـيأتي، وأن الغايـات الكبـار تتحقـق ولكـن حيـن يأتـي أوانهـا لا تخلـف مواعيدهـا شـرط أن تجـد مـن يناضـل فـي سـبيلها ومـن يتلقفهـا لحظـة الوصـول، سـنبقى نبشـر ببعـث أمتنـا ووحدتهـا، وسـنبقى ننشـر الأمـل فـي كل مفصـل.

مسـاحة الفـرح والنصـر فـي كـرة القـدم أظهـرت بوضـوح نزعـة متأصلـة لـدى كل عربـي بشـأن عروبتـه، وذكـرت بالتفافهـا حـول قادتهـا العظـام، وأنـه ينقصنـا الفـارس القائـد، وأن قائـداً كعبـد الناصـر مـا يـزال حيـاً فينـا، وأن الغـزاة والمتآمريـن أتـوا إلـى بلادنـا حيـن شـعروا بخطـر محمـد علـي باشـا عليهـم، وأنهـم شـعروا بـذات الخطـر حيـن أطـل عبـد الناصـر فـي سـماء العـرب، فـلا نعجـب مـن المؤامـرة المتواصلـة حتـى علـى أطفالنـا، وكأنـي بهـؤلاء المجرميـن سـمعوا قـول الشـاعر:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ   تخر له الجبابر ساجدينا

قضيتنـا سـتبقى حيـة طالمـا بقينـا أحيـاء وبقيـت حيـة فينـا، ولأن عروبتنـا بالفطـرة فلـن تغيـب شمسـها وإن غطتهـا سـحب الدخـان الأسـود.

قـراءة في تفاعـل الشــارع العربي مـع المنتخـب المغربي لكأس العــالم 2202

إبراهيم علوش



لست من متابعي كرة القدم، ولم أشاهد مباراة واحدة في حياتي، ولطالما عددت مثل تلك المباريات معادل المبارزات التي كان يقيمها قياصرة الروم في الملاعب العامة لإلهاء الشعب عن قضاياه الحقيقية وتهميشه سياسياً، ولطالما عددت التعصب الأعمى لفرق كرة قدم تمثل دولاً استعمارية، أو لفرقٍ لا تمت إلينا كعربٍ بصلة، شكلاً من أشكال الهستيريا الجماعية التي تتبدد فيها العقول والقلوب والطاقات والمشاعر والأنظار في أنفاق تغريب الهوية القومية والحضارية.

أما حين يتحول مثل ذلك التعصب الأعمى إلى دعم فرق كرة قدم تمثل أطيافاً من المجتمع العربي، أي حين يتخذ صورة تعبئة طائفية أو عرقية أو مناطقية أو قُطرية تعمق انقساماتنا الداخلية وترش الملح على الجروح الغائرة، فإنه يعزز مشروع تفكيك المجتمع العربي فيما يؤمّن منافذ آمنة سياسياً بعيداً عن القوى المهيمنة على الوطن العربي أقطاراً وثروات.

لا يتعلق الحديث هنا بممارسة الرياضة، سواء كانت رياضة كرة قدم أم غيرها، ولا سيما ألعاب القوى والرياضات القتالية، فذلك لا نقاش في أهميته وفائدته وجدواه وضرورة تشجيعه، ولا يتعلق بالمباريات الودية على المستوى المحلي التي تعزز الانصهار الاجتماعي، كما أنه لا يتعلق بتطوير المهارات الرياضية والتنافس فيها



كأحد أبعاد تحقيق الإنسان لذاته الفردية والجماعية.

تكمن المشكلة، على العكس تماماً، في عدم ممارسة الرياضة، وفي تحول المرء من مشارك إلى «مشاهد»، وفي تحولنا الجمعي من شعبٍ فاعلٍ مدركٍ لذاته، وواعٍ لقضاياه، إلى جموعٍ تحركها غريزة القطيع ممسوخٌ وعيها، أي تحولنا من جماهير إلى «جمهور» يشجع فريقاً ما، تتزايد الكارثة حجماً حين يكون فريقاً يمثل دولةً استعمارية، أو لوناً طائفياً أو مناطقياً محدداً في مواجهة الطوائف أو المناطق العربية الأخرى.

ذلك الإعجاب بالأداء الكروي يتحول، في المحصلة، إلى تصفيقٍ لما يمثله المؤدون سياسياً، وإلى تبنٍ لعلمهم والتفاخر برفعه والتلويح به، وهذا خطيرٌ جداً، من المنظور القومي، لأنه مدخلٌ للاستلاب من بوابة إيهام المشاهد أن عليه أن يكون «محايداً سياسياً» كي يكون «محللاً رياضياً» جيداً، كأن رأيه يؤثر قيد أنملة على نتائج تلك المباريات أو على آراء حكامها، وكأن المنظومة الرياضية حول العالم تعمل بصورةٍ منفصلةٍ عن السياسة (مثال حظرُ الغرب اللاعبين الروس من المنافسات الدولية نموذجاً)، وعن التجارة (مثال إعلان رئيس الاتحاد الدولي لكرة القدم أن مونديال 2022 عاد بإيرادات تبلغ 7.5 مليار دولار، بزيادة مليار دولار عن إيرادات مونديال 2018 في موسكو).

أما مشهد انسياق الملايين حول العالم ورفعها لأعلام دولٍ استعمرتها، أو لا تمت إليها بصلة، فقيمةٌ سياسية بذاتها، تصب في جيب منظومة الهيمنة الخارجية، وهو أمرٌ معيب بصراحة، لأنه عنوانٌ لفقدان الهوية والانتماء في أتون صراعٍ عالمي ضد الهيمنة الغربية من جهة، وفي أتون صراعٍ وجودي تخوضه الأمة العربية دفاعاً عن وجودها وهويتها من جهةٍ أخرى.

ومن يزعم أنه يشجع فريقاً ما بسبب حسن أدائه رياضياً فحسب، بغض النظر عما يمثله ذلك الفريق سياسياً أو اجتماعياً، لن يجد حرجاً في دعم فريق «إسرائيلي» مثلاً، إن أعجبه أداؤه، أو فريق «حلف ناتو» (لو افترضنا منافسة دولية لفئات من غير الدول)، أو فريق أي قوة محتلة في أي مكان وزمان. كما أن مثل هذا المنظور «الفني» لن يستطيع أن يميز أيضاً، على الصعيد الداخلي العربي، بين منافسات رياضية أو غير رياضية تمثل انصهاراً اجتماعياً وبين ما يمثل انقساماً اجتماعياً. ويُفترض أن الواحد منا، وأننا ككتلة، لو خيّرنا بين فريق عربي موحد صاعد ضعيف الإمكانات حالياً، وبين فريق يمثل دولة



استعمارية تديره، بما تملكه من إرثٍ في الإدارة والتنظيم وخوض المعارك، كأحد معالم عظمتها عالمياً، ويتمتع بموارد هائلة، ويتعاقد تالياً مع أفضل اللاعبين والمدربين حول العالم، أن ننحاز تلقائياً إلى الفريق الأول قولاً واحداً.

ومن المؤكد أننا لو تمكّنا من تشكيل فريق، في أي رياضة، يستند إلى موارد الأمة العربية ككل، وإلى مهارات نخبة شبابها وشاباتها، أنه سيكتسح الميادين كسيفٍ بتار، لأن التميّز الرياضي، كما نلاحظ عالمياً، من المنافسات الدولية إلى الأولمبياد، ليس ببعيدٍ عن التميز الحضاري للأمم، فهو أحد معالم المشروع النهضوي، وليس العائق هنا في الكفاءة الفردية للمواطن العربي، ولا حتى في قلة المال، بل في غياب مشروع للنهوض القومي العربي، بدلالة عدد العرب المتميزين من رياضيين وعلماء وباحثين ومهنيين إلخ... في سياقات غربية.

حول تفاعل الشارع العربي مع المنتخب المغربي في كأس العالم 2202

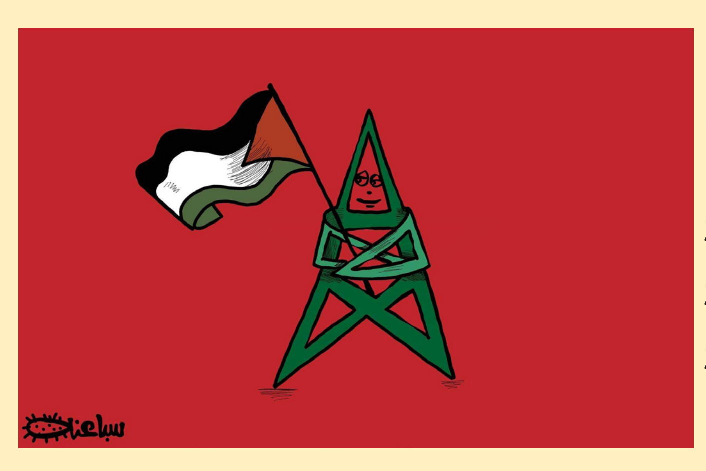
شهدت مباريات كأس العالم 2202 تفاعلاً شعبياً عربياً عارماً مع المنتخب المغربي إبان تقدمه المظفر إلى مباريات نصف النهائي، وصولاً إلى منازلته الكروية مع المنتخب الفرنسي. ولم يعد بوسع أي مراقب سياسي (لا رياضي فحسب) ألا يلاحظ بروز حس قومي عربي واضح فرض وجوده بقوة في وسائل التواصل الاجتماعي وفي الشارع العربي من الوطن العربي إلى المهاجر. ويمثل بروز مثل ذلك الحس، في زمن العولمة والهويات القاتلة، وفي عز تراجع المد القومي، ظاهرةً سياسية ذات قيمة قومية عربية، وتجلت تلك الظاهرة فيما يلي:

أ – تحول علم المغرب إلى رمز قومي عربي، لأننا لم نلحظ ظاهرة الرفع المكثف للعلم المغربي في البلدان غير العربية ذات الغالبية المسلمة.

ب – تحول علم فلسطين، بما يمثله من بعد وطني تحرري مناهض للاحتلال الصهيوني، إلى رمز قومي عربي مجدداً.

ج – تبني المنتخب المغربي لعلم فلسطين.

د – تبني الفلسطينيين للعلم المغربي.



ه – بـروز إجمـاع تلقائـي بيـن مشـجعي الفريـق المغربـي علـى ربـط العروبـة بمـن يخـوض معركتهـا فـي الميـدان، ولـو كان ذلـك الميـدان رياضيـاً فحسـب، وأن فلسـطين هـي قضيـة العـرب الأولـى، وأن العلاقـة بيـن العروبـة والإسـلام هـي علاقـة انسـجام ووئـام، لا علاقـة نفـي وتضـاد.

في السـياق، نلاحـظ أن تلـك الظاهـرة بـرزت عكـس التيـار، ويسـعى الطـرف الأمريكـي-الصهـ.يـ.ـوني وأذنابـه إلـى تعميـق وجـود التيـارات التاليـة فـي الشـارع العربي:

أ – تيـار التطبيـع، ولا سـيما التطبيـع المتصاعـد للنظـام المغربـي الـذي يتعامـل علـى أن فريـق «أسـود الأطلـس» يمثلـه، وتيـار التطبيـع «الإبراهيمـي» عمومـاً ومـا سـبقه مـن تطبيـع علـى أرضيـة اتفاقيـات كامـب ديفيـد وأوسـلو ووادي عربـة.

ب – تيـار العولمـة، ولا سـيما الجهـد المنهجـي المبـذول مـن طـرف التيـار الليبرالـي ممثـلاً بكتابـه ورمـوزه والجمعيـات غيـر الحكوميـة المموـلـة غربيـاً لنبـذ الانتمـاء الوطنـي والقومـي والالتفـاف حـول هويـة «الإنسـان» الفـرد المعـولـم والمنبـت عـن أي انتمـاء قومـي أو حضـاري.

ج – تيـار تسـخيف الانتمـاء العربـي لمصلحـة الهويـات المخترقـة، وهـذا مهـمٌ جـداً فـي السـياق المغاربـي تحديـداً فـي مواجهـة دعـاة الفرنسـة والتمزيـغ ومناهضـة العروبـة لغـةً وهويـة، وكان مـن المهـم هنـا خصوصـاً أن يـرى المغاربـة مـدى احتضـان العـرب لعلمهـم مـن المحيـط إلـى الخليـج ومـدى فخـر العـرب بالمغـرب مـن دون توقـف عنـد مسـألة العـرب والأمازيـغ.

د – تيـار «الشـرق أوسـطية» الـذي يمثـل تقاطعـاً بيـن تيـاري التطبيـع والعولمـة، والـذي يمحـو هويـة الوطـن العربـي لتعويـم «إسـرائيل» فـي قلبـه كدولـة «طبيعيـة»، وتيـار «المشـرقية» الـذي لا يقـل خطـورة، لأنـه يتلفـح بعبـاءة المقـ.ـاومة، فـي الوقـت الـذي يهـدف إلـى تذويـب العروبـة والعـرب وإلحاقهـم بإطـارٍ إسـلاموي عثمانـي أو تركـي-إيرانـي.

ولا نحمّـل الظاهـرة العروبيـة التـي بـرزت فـي مباريـات كأس العالـم أكثـر ممـا تحتملـه، فهـي

ليست حركة وحدة وتحرير ونهضة، ولا حركة جديدة للنهوض القومي، ولا لفك الحصار عن سورية واليمن، ولا لتحرير فلسطين، إنما مجرد مؤشر لا يمكن إنكاره على أن في الأمة العربية نبض حياة، وعلى أن الحس القومي العربي لم يمت، وعلى أن بوصلة الشعب العربي لم تضل، وأنها، عندما يتاح لها أن تتجلى بلا عوائق، تبقى: العروبة-فلسطين-تبني من يخوض معركة العروبة منتصراً ومهزوماً.

هو موقفٌ شعبيٌ عربيٌ إذاً ظهر في سياق مباريات كأس العالم 2022، ولا نصِفُه بأكثر من ذلك، ولكنه موقفٌ مهم، لأنه يكشف عما في روح الأمة العربية، ولأنه يحيي الأمل باستعادة ما كان وما يمكن أن يعود تحت شروطٍ أخرى مختلفة عن ظروف الواقع العربي الراهن. ومثل هذا لا يسعُ أي قومي عربي حقيقي أن يتجاهله، سواءٌ أتى على خلفية مباريات رياضية أو أغنية تحرك المشاعر القومية أو غير ذلك... أو في موقف حارس مرمى المنتخب المغربي، ياسين بونو، حين رد على الصحفيين الأجانب الذين غضبوا لأنه أصر على التحدث باللغة العربية، ولم يرد عليهم باللغات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية التي يتقنها: «ليست مشكلتي أنكم لا تتحدثون العربية ولم تحضروا مترجمين».

لماذا لم يبرز الحس القومي في مواجهة التحديات الحقيقية في المشهد العربي؟

وكم من قائل: لماذا لم نرَ مثل هذا الحس القومي في الشارع العربي في فلسطين وغيرها إذاً، ولماذا لم نره في حصار العراق وغزوه واحتلاله، وخلال عدوان الناتو على ليبيا عام 2011، وخلال السنوات الـ11 الفائتة في سورية، إلخ...؟

والجواب هو: ما ظهر هو الموقف الشعبي العربي، محمولاً على ظهر مباريات كروية، عندما يكون التعبير عنه غير محفوفٍ بالمخاطر. لكنْ تخيلوا لو كان ثمن رفع علم فلسطين مثلاً هو الاعتقال أو الطرد من الملعب بالنسبة للاعبين، أو الطرد من قطر والوضع على القوائم السوداء، وربما الضرب والسجن وفقدان الوظيفة إلخ... سيكون التعبير عن الموقف مختلفاً حينئذٍ، لأنه سيكون مكلفاً، وقس على ذلك بالنسبة للقضايا العربية الأخرى. فالمعارك المكلفة لها حسابات أخرى، وتحتاج إلى أدوات مختلفة حرصت الأنظمة العربية على ألا تتركها متوفرة في الواقع العربي اليوم، وحرص الغرب على ألا



يتركها متوفرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي يسيطر عليها.

كان للنظام القطري مصلحة مباشرة في هذه الحالة بالذات في ترك مظاهر التعبير عن هذه المشاعر تتجلى ليغطي على الاختراق التطبيعي الكبير الذي سمح به والمتمثل بـ:

أ – السماح لآلاف «الإسرائيليين» أن يأتوا إلى قطر لحضور مباريات كأس العالم.

ب – السماح لوسائل الإعلام «الإسرائيلية» بالتحرك كيفما تشاء لتغطية تلك المباريات.

ج – السماح برحلات طيران مباشرة بين الكيان الصهـ.يـ.وني وقطر.

د – السماح بمكتب تمثيل «إسرائيلي» في قطر لإدارة شؤون المستعمرين المستوطنين القادمين إليها.

يجب أن ننتبه أيضاً إلى مسألة مهمة وهي أن «المعركة» هنا، أي في حالة خوض «أسود الأطلس» لمباريات كأس العالم:

أ – كانت واضحة، فهناك ميدان واضح (ملعب كرة القدم)، وفريق واضح (أسود الأطلس).

ب - كانت مباشرة، فهناك حدود زمانية محددة للمواجهة: أي أنها مباراة يخوضها الفريق المغربي ضمن سقف زمني محدد ولسوف تظهر نتائجها مباشرة في الزمان والمكان الراهنين.

أما في القضايا العربية الأخرى، فإن الحدود المكانية والزمانية غير واضحة، والنتائج ليست مباشرة، فلو دعونا مثلاً إلى تأسيس حركة جديدة للنهوض القومي فإن النتائج تبدو بعيدة المنال، وظروف النضال وشروطه قد تبدو ضبابية وغير واضحة المعالم، ولذلك لا يتجاوب مع مثل تلك الدعوات إلا المواطنون العرب الطليعيون. معركة قناة السويس عام 1956، على سبيل المثال، كانت معركةً واضحةً مكانياً وزمانياً ومحددة المعالم.

أضف إلى ذلك أن حجم التشويش والتشويه المعادي الذي يشوب القضايا العربية عموماً، والتناقضات العربية الداخلية التي تقف عائقاً في طريق التصدي لها، وانفلاش الحروب اليوم، في جيلها الرابع، في مديات متداخلة غير واضحة المعالم، سياسية-عسكرية-اقتصادية-إعلامية-ثقافية-إلكترونية، لم يترك للوضوح مطرحاً فيها، وبالتالي صار تمييز

معالمها يحتاج إلى قدرٍ لا بأس به من دقة البوصلة وتطور الوعي.

ما حدث في التفاعل الشعبي العربي مع «أسود الأطلس»، بالمقابل، هو أن الشعار العروبي والفلسطيني والداعم لمن يخوض المواجهة قفز من فوق كل تلك الظروف والتناقضات وحلق من فوق مساحاتها الملتبسة، ليعبر عن حسٍ قوميٍ عروبيٍ فحسب، ولهذا فإن الظاهرة، كتعبير جماهيريٍ سياسيٍ عن موقف مبدئي، لم يكن مطلوباً منها أن تتحول إلى حركة تحرير شعبية عربية أو حركة عربية واحدة أو مد قومي عارم يتحول إلى قوة سياسية في المشهد العربي، لأن لذلك شروطه التي لما تتحقق بعد، ولكنه يرسل رسالة إلى الطليعة بأن الحاضنة الجماهيرية موجودة، ورسالةً لكل من يهمه الأمر، من عدوٍ أو صديق، أو قومي عروبي يائس، أن للأمة العربية قلباً ينبض.

ثم أن هناك ظرفاً موضوعياً، أو حكمةً ربانيةً إن شئتم، ساعد أو ساعدت على انبثاق الظاهرة الشعبية العربية المتفاعلة قومياً مع «أسود الأطلس»، وهي أن الفرصة لم تتح للعرب كي ينقسموا لو تأهل أكثر من فريق عربي لكأس العالم 2202، وكانت فرق قطر والسعودية وتونس قد تأهلت أيضاً، لكنها لم تصل إلى نصف النهائي. ولو تواجه فريقان عربيان في نصف النهائي أو النهائي لحدث ما لا تحمد عقباه على الأرجح نتيجة طبيعتنا الانفعالية وقابليتنا للتشرذم، وهو أحد التحديات الكبرى التي لا بد أن تتعامل معها أي حركة قومية صاعدة في وطننا العربي اليوم.

باختصار، أظهرت ظاهرة التفاعل الشعبي العربي مع المنتخب المغربي في مباريات كأس العالم 2202 أن هناك حساً قومياً حقيقياً، ولا ننفي وجود تيارات أخرى نقيضة من حوله، وأن هناك أملاً للعمل القومي، ولكن ما نفتقد إليه هو المشروع القومي العربي الذي يتصدى لتحديات الواقع العربي هنا والآن في القرن الواحد والعشرين.



هل الشقاق طبعٌ في العرب؟

مجلة «الرسالة»، العدد 819، 14 آذار 1949

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

«وجهت هذا السؤال مفصلاً إلى صديقي الأستاذ الكبير ساطع الحصري بك المستشار الفني لجامعة الدول العربية. ولكن المقال لم يعجب الرقيب فلم يأذن بنشره. ولما اطلع عليه الأستاذ أبو خلدون أجاب عنه بهذا البحث الذي تقرأه. وإني لأرجو بعد أن ينشر أن أعلق عليه بما يتفق مع رغبة الرقيب وواجب الحق وسياسة الرسالة»

(أحمد حسن الزيات)

صديقي الأستاذ. . .

لقد اطلعت على السؤال الذي وجهتموه إلي، في مقالكم المعنون (هل الشقاق طبع في العرب؟).

فقد أشرتم في المقال المذكور إلى حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التي توالت في تاريخ العرب؛ واستعرضتم الأحزاب السياسية والفرق الدينية التي ظهرت بينهم؛ ثم ذكرتم رأي ابن خلدون في هذا المضمار. وفي الآخِر تساءلتم: (هل كتب الله على العرب أن يعيشوا أبداً بطبيعة البادية ونفسية الغابة وعقلية القبيلة؟)، فوجب علي أن ألبي طلبكم، فأكتب إليكم ما اعتقده في هذه القضية الهامة. غير أني رأيت من الضروري أن أقف أولاً أمام

(المقدمات) التي صدرتم بها هذا السؤال، قبل أن أحاول الإجابة عنه إجابة مباشرة.

فاسمحوا لي أن أسألكم بدوري: هل تظنون أن الاختلافات التي ذكرتموها كانت من خصائص الأمة العربية وحدها؟ أنا لا أشك في أن جوابكم عن هذا السؤال سيكون بالنفي؛ لأنكم تعرفون جيداً - كما يعرف ذلك كل من يستعرض التاريخ العام - أن تواريخ الأمم الأخرى لم تخلُ من أمثال تلك الاختلافات.

فيترتب على ذلك إذن أن أنقل البحث إلى كمية هذه الاختلافات وشدتها، فأسألكم: هل تعتقدون أن الاختلافات السياسية والدينية التي حدثت في تاريخ العرب كانت أكثر وأشد وأعنف من التي تجلت في تواريخ الأمم الأخرى؟ أنا أعرف أن الآراء الشائعة الآن لا تدع مجالاً للتفكير ملياً في هذا السؤال؛ لأنها تحمل الأذهان على الرد عليه فوراً بالإيجاب.

وأعترف بأني أنا أيضاً كنت - مدة من الزمن - من المتأثرين بهذه الآراء الشائعة، ومن المسلِّمين بأن تاريخ العرب يشذ في هذه القضايا عن تواريخ الأمم الأخرى شذوذاً كبيراً، وإني بدأت أشك في صحة الآراء الشائعة عندما أخذت أتعمق في دراسة التاريخ العام؛ وازددت شكاً فيها كلما تغلغلت في هذه الدراسة؛ إلى أن أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً بأنها لا تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة أبداً؛ لأنها لا تقوم على مقارنات شاملة، بل تستند إلى استقراء ناقص جداً.

إننا ننفعل، ونتألم، ونغضب، عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب، ولا سيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين.

إننا ننفعل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمنة الحاضرة، ولا نكلِّف عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها. فيجب علينا، قبل كل شيء، أن نطلق أذهاننا من ربقة هذه الآراء الشائعة، لندرس هذه القضايا من جديد، بنظرات علمية بحتة، مع استقراء الحوادث التاريخية استقراء تاماً.



فلنبدأ أولاً بقضية الاختلافات الدينية. ولنستعرض ما حدث منها في أوروبا طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة، نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عنفاً مما حدث في العالم العربي خلال الأزمنة المذكورة، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها.

أحصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في البلاد الأوروبية خلال القرون المذكورة، استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى، استقصوا أخبار الحروب الأهلية والدولية التي نجمت من هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الأوروبية، حتى في فرنسا التي تظهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم، قلبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة أخرى، فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الأوروبية كانت - بوجه عام - أوسع نطاقاً، وأكثر تنوعاً، وأشد عنفاً من التي حدثت في العالم العربي. وأما الاختلافات السياسية، فأمرها يحتاج إلى بحثٍ أشمل، وتفكير أعمق.

فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء: أن العرب انتشروا - بعد الهجرة النبوية - بسرعة خارقة، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً. ففتحوا خلال قرن واحد، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون.

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت إليه الدولة العربية في أوائل القرن الثاني للهجرة وأواسط القرن الثامن للميلاد، تتبعوا حدود تلك الإمبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الأطلسي إلى شواطئ نهر السند وسهول كشغر، ومن سفوح همالايا إلى جبال البرنس والألب، ومن سواحل بحر الهند إلى أواسط بحر قزوين وبحيرة آرال، ومن باب المندب إلى جبال القفقاس، وتذكروا في الوقت نفسه بساطة الوسائط الناقلة والمواصلات ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور، ثم قولوا لي: كيف كان يمكن أن تبقى تلك السلطنة المترامية الأطراف مصونة من مغبة الانقسام مدة طويلة من الزمن، بالرغم من اختلاف الشعوب الكثيرة التي دخلت تحت

حكمها، وبالرغم من طول المسافات الهائلة التي كانت تفصل ثغورها من عاصمتها، وضآلة الوسائط التي كانت تضمن اتصال هذه العاصمة بتلك الثغور.

قولوا لي: أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط، استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب، من دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات؟

لا تنسَ أن إمبراطورية إسكندر الأكبر - في القرون الأولى - تجزأت بعد موت مؤسسها، مع أنها كانت أصغر بكثير من الإمبراطورية العربية. كما أن إمبراطورية شارلمان - في القرون الوسطى - لم تسلم من الانقسام بعد موت عاهلها، مع أنها كانت قليلة الاتساع جداً بالنسبة إلى اتساع الدولة العربية في أواخر عهد الأسرة الأموية، أو أوائل عهد الأسرة العباسية. ولا تنسَ أن انقسام السلطنات والإمبراطوريات الكبيرة وانحلالها إلى إقطاعيات صغيرة كانت من الأمور الطبيعية المألوفة في جميع أنحاء العالم المعلوم في القرون الأولى والوسيطة.

ولذلك أعود وأسألكم مرة أخرى: كم أمة من الأمم التي عرفها التاريخ كانت أقل اختلافاً وأكثر اتحاداً من الأمة العربية من الوجهة السياسية؟

اليونان؟ . . . ولكن التاريخ يشهد شهادة صريحة على أن هذه الأمة لم تتحد سياسياً في يوم من الأيام، كانت كل مدينة من المدن اليونانية الكثيرة مملكة قائمة بذاتها، دولة مستقلة عن غيرها، وهذه الحالة كانت تبدو لليونانيين طبيعية وضرورية حتى أن كبار مفكريهم كانوا يحبذون هذه الحالة، وكانوا يشاركون الرأي العام في هذا المضمار. وقد قال أفلاطون: إن عدد المواطنين في الدولة - أي الجمهورية - يجب ألا يزيد على خمسة آلاف. وقال أرسطو: إن الدول يجب أن تكون صغيرة، حتى يستطيع جميع أفرادها أن يعرف بعضهم بعضاً معرفة مباشرة. في الواقع أن هذه المدن المستقلة - أي هذه الدويلات الصغيرة - كانت تتفق وتتحالف من حين إلى حين لدرء الخطر الخارجي الذي يحدق بالجميع، غير أن هذا التحالف كان لا يلبث أن ينفصم وينحل من جراء تنافس المدن الرئيسية على زعامة الحلف.

ومن المعلوم أن أشهر وأهم هذه المحالفات تكونت عند هجوم الميديين (من الشعوب



الإيرانية القديمة) على بلاد اليونان. غير أن هذه المحالفة أيضاً لم تعمر طويلاً، بل انحلت وزالت قبل أن يمضي على تكوينها عقدان من السنين. وقد انقضى تاريخ اليونان السياسي بالمنافسات والمنازعات التي قامت بين أثينا وإسبارطة وكورنت. ومن المعلوم أن هذه المنافسات أدت إلى حدوث عدة حروب دامية بين مختلف المدن اليونانية كان أشهرها الحروب التي عرفت باسم حروب البلوبونيز، ولا ننسى أن هذه الحروب التي اشترك فيها معظم المدن اليونانية هي التي أدت إلى تحطم الأسطول الإسبارطي من جهة، وإلى تدمير أسوار أثينا من جهة أخرى.

وقد حدثت هذه المنافسات والمحاربات بين تلك الدويلات، مع أن مساحة البلوبونيز - مع شبه جزيرة آتيكا - كانت أقل من مساحة بعض المديريات في مصر، والمحافظات في سورية، والمتصرفيات في العراق، ومع أن المسافة التي تفصل أثينا عن إسبارطة لا تختلف كثيراً عن المسافة التي تمتد بين القاهرة والإسكندرية، وتقل كثيراً عن التي تفصل دمشق من بغداد، وتتضاءل تماماً أمام المسافات الشاسعة التي تفصل بغداد عن قرطبة ولا سيما بلخ عن لشبونة.

إن هذه المئات من الدويلات اليونانية التي تقاسمت هذه الرقعة الصغيرة من الأرض ظلت متفرقة متنافسة متخاصمة، ولم تجتمع تحت إدارة واحدة إلا عندما دخلت تحت حكم دولة أجنبية. ترون، أيها الأستاذ، أن الأمة اليونانية لم تكن قط في حالة تحسد عليها من هذه الوجهة.

وأما الرومان، فلا شك في أنهم امتازوا بين أمم التاريخ القديم بالاتحاد والانتظام. والإمبراطورية التي أسسوها عاشت مدة أطول من مثيلاتها بوجهٍ عام، غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الامتياز نتج عن توافر عدة عوامل وأوضاع مساعدة لم تتيسر لغيرها أبداً:

أولاً: أن السلطنة الرومانية تكونت بتدرجٍ عظيم، وهذا التدرج ساعد على رسوخ الأوضاع الجديدة واستقرارها مساعدة كبيرة.

ثانياً: أن الإمبراطورية الرومانية شملت جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط. ولا حاجة إلى القول بأن روما كانت في نقطة مركزية من هذا البحر، وقد ساعد ذلك كثيراً على

اتصال العاصمة بمختلف أقسام السلطنة عن طريق البحر بسرعة وسهولة بالنسبة إلى وسائط النقل والمواصلة المعلومة في تلك العصور القديمة.

ثالثاً: أن السلطنة الرومانية لم تتباعد عن السواحل كثيراً، ولم تتغلغل في الأقطار القارية أبداً. إنها لم تسيطر على جزيرة العرب ولا على ما بين النهرين؛ فمعظم أقسام العراق، وجميع بلاد إيران وخراسان، وما وراء النهر والأفغان، ظلت خارجة عن حوزة السلطنة الرومانية، وذلك قلل إلى حد كبير مشاكل الحكم التي تلازم السلطنات المترامية الأطراف.

إن اجتماع هذه الأسباب الأساسية هو الذي ساعد على إطالة عمر الإمبراطورية الرومانية بالنسبة إلى ما كان معتاداً في القرون الأولى والوسطى. ومع كل هذا يجب ألا ننسى أن هؤلاء الرومان أيضاً لم يسلموا من آفات الاختلاف والتنافس: استعرضوا تاريخ روما بنظرة فاحصة ولاحظوا كم من المنازعات قامت بين مختلف الطبقات الاجتماعية، حتى في مدينة روما نفسها، وحتى في عهد الجمهورية؟ وكم من الحروب الداخلية نشبت بين القواد في عهد الإمبراطورية؟ وكيف أصبحت الجيوش ذات الكلمة النافذة في تنصيب الأباطرة؟ وكيف كانت الغلبة والكلمة العليا في هذا الأمر تارة إلى الجيوش المرابطة في أسبانيا، وطوراً إلى الجيوش المرابطة في سوريا، وتارة إلى الجنود المرابطة في أفريقيا؟ وكيف أصبح الوصول إلى العرش رهن النجاح في مؤامرات لا تعد ولا تحصى؟

وإذا لاحظتم كل ذلك اضطررتم إلى التسليم بأن الإمبراطورية الرومانية لم تعش سالمة من الاختلافات، بل إنما عاشت بالرغم من الاختلافات، وأما أخلاف الرومان القدماء، فلا ننس أنهم عاشوا متفرقين متخالفين مدة لا تقل عن خمسة عشر قرناً.

وإذا تركنا السلطنات القديمة جانباً، وانتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا، وتتبعنا أحوالها الماضية - طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة - وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفاً.

ولنأخذ فرنسا مثلا؛ فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوروبية إلى الوحدة السياسية الكاملة، والتماسك القومي المتين، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب. أنا لا أود أن أطيل الحديث في هذا الموضوع، ولذلك أكتفي بنقل كلمة كتبها مؤرخ فرنسا



الشهير (أرنست لافيس) لتلخيص تلك الأحوال، قال المؤرخ: (لقد مضى عهد من التاريخ كانت فيه فرنسا شبيهة بمقدونيا الحالية منقسمة إلى أجزاء كثيرة، متخالفة، متنابذة، متنافسة، متخاصمة. وقد وجب أن تسيل الدماء مدراراً حتى تلتحم هذه الأقسام المختلفة، فتصل فرنسا إلى وحدتها الحالية).

هذه كانت أحوال فرنسا التي سبقت جميع الدول الأوروبية في طريق الاتحاد. وأما إذا أنعمنا النظر في تواريخ الدول الغربية الأخرى، فنجد فيها أيضاً أحوالاً مماثلة لذلك تجلت بمقياس أوسع، وبشدة أعظم، واستمرت مدة أطول. لا بد من أن نتذكر - في هذا الصدد - أن ألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمئة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاماً فقط. إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة ولهذا كله أستطيع أن أقول بكل تأكيد: إننا كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الأوروبية ازددنا يقيناً بأن معالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط أقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام. إني أقول هذا بكل تأكيد مع علمي بأني أخالف بذلك آراء الكثرة الساحقة من الكتاب والباحثين.

وقد فكرت ملياً في الأسباب والعوامل التي حملت الرأي العام على التباعد عن طريق الصواب في هذه القضية الهامة، وأعتقد أنني وصلت إلى معرفتها بكل وضوح: إن مراكز رؤيتنا لتاريخ العرب تختلف - بوجه عام - عن مراكز رؤيتنا لتواريخ الأمم الأخرى، فنحن ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد نظرة إجمالية فندرك خطوطها الأساسية العامة من دون أن نتيه في تفاصيلها الفرعية. ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب نظرة تفصيلية فنطلع على كثير من تفاصيله من دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية.

وأستطيع أن أقول: إن موقفنا تجاه التاريخ العام موقف رجل يتفرج على الجبل من السهل البعيد، وأما موقفنا تجاه تاريخ العرب، فهو موقف رجل يسير في قلب الجبل ويتغلغل في وهاده، ومن المعلوم أن الجبال تتألف عادة من وهاد ووديان، ومرتفعات ومنخفضات، وهضاب ومنحدرات، فلا تبدو عالية شامخة، إلا لمن ينظر إليها من بعيد، ويدرك شكلها العام من دون أن يتيه بين خطوطها الفرعية المعقدة.



إن تواريخ الدول الأوروبية تبدو لنا جبالاً مرتفعة شامخة، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الأوروبيين، ومن الخارج ومن البعد، فلنغير موقفنا منها ونظراتنا إليها، وذلك بالتغلغل فيها، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهادٍ ووديان بالرغم من منظرها الخارجي العام. وأما تواريخ الدول العربية، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة، لأننا ننظر إليها بنظر الإخباريين القدماء، ومن داخلها؛ فلنغير موقفنا منها، ولننظر إليها من بعد - نظرة تسمو على النزعات - فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة بالرغم مما فيها من وهادٍ ووديان. يجب علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا على الدوام، وأن نسعى لتوحيد نظراتنا إلى صحائف التاريخ القومي والتاريخ العام، ولنعدل عن استعمال نظارات مكبرة للعيوب في الأولى، ومصغرة للعيوب في الثانية، كما اعتدنا ذلك إلى الآن.

وعندما نفعل ذلك نفهم حق الفهم أن الأحكام الشائعة بيننا على تاريخ العرب، إنما هي وليدة نظرات خاطئة، ومقارنات قاصرة، ولهذا السبب كانت في حاجة شديدة إلى التصحيح والتقويم بوجه عام.

وأما ما ذكرتموه عن رأي ابن خلدون في هذه القضية، فهو أيضاً في حاجة إلى إنعام النظر. فقد نقلتم الفقرات التالية، من مقدمة هذا المفكر العظيم: (والعرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة). أنا أعرف أن ابن خلدون أبدى هذا الرأي في مقدمته المشهورة، ولكني أرى من الضروري أن نفطن جيداً إلى ما يقصده من كلمة العرب الواردة في هذه الفقرات؛ ثم نبحث عن نصيب رأيه هذا من الصحة والصواب.

من الأمور التي يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام - حين نقرأ مقدمة ابن خلدون ونستشهد بها - أن مؤلفها كان يقصد من كلمة (العرب) العربان بوجه خاص وفقاً لما هو متعارف بين العوام -؛ ولم يقصد قط أفراد الأمة العربية بوجه عام كما نفهمها ونتصورها نحن الآن. إنني سردت الأدلة الكثيرة التي تبرهن على ذلك برهنة قاطعة في عدة مقالات نشرتها في بيروت وبغداد وفي فصل خاص من الدراسات التي كتبتها عن مقدمة ابن خلدون، ولا أرى لزوماً إلى إعادة تلك البراهين والأبحاث في هذا المقام.



ولما كانت الدراسات المبحوث عنها قد نفذت، رأينا أن ننقل هنا نموذجين من البراهين المسرودة فيها، وقد انتخبنا أحدها من القسم الأول من المقدمة، والثاني من القسم الأخير منها، قلت:

(فلنلاحظ الفصل الذي يقول فيه ابن خلدون (إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب) ولننعم النظر في الأدلة التي يذكرها لتعليل رأيه هذا: (فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني فيخربونها عليه، ويعدونه لذلك. والخشب إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد لبيوتهم فيخربون السقف عليه) (ص149).

ومن البديهي أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام. ولا مجال للشك في أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات وقال: (لا يحتاجون إلى الحجر إلا لوضع القدور، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام) لم يفكر قط في أهل دمشق أو القاهرة، ولا بسكنة تونس أو فاس، إنما قصد أعراب البادية وحدهم. وقال: (وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها. وصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد العرب عنها وعن سوقها) (ص 544).

يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة العرب مرتين مقابلاً لكلمة الحضر، بشكل لا يترك مجالاً للشك في أنه يقصد منها البدو على وجه التخصيص ويخرج من نطاق شمولها الحضر على الإطلاق. غير أني أرى من الضروري أن ألفت الأنظار إلى موضع الفقرات الآنفة الذكر من أبحاث المقدمة: إن تلك الفقرات مستخرجة من الفصل السابع والعشرين من الباب الثاني؛ وعنوان الباب المذكور هو: (العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال). وذلك أيضاً يدل على أن ما جاء في هذه الفقرات ينصب على الذين يعيشون في حالة البداوة، ولا يشمل الذين يعيشون في المدن. ومن المعلوم أن أحوال المدن تكون موضوعات البابين الثالث والرابع من المقدمة. والفقرة الآنفة الذكر لا تدخل في نطاق البابين المذكورين.

وبناء على كل ما تقدم يحق لنا أن نعبر عن رأي ابن خلدون في هذه القضية - وفق

أسلوب كلامنا الحالي - بالعبارات التالية: (إن العرب - عندما كانوا في حالة الفطرة والبداوة - لم يستطيعوا أن يؤلفوا دولة ويؤسسوا ملكاً، إلا عندما تأثروا بدين أو ولاية تزيل عنهم التحاسد والتنافس، وتحملهم على الانقياد والاجتماع). ومن الغريب أن كلمات ابن خلدون في هذا المضمار - عندما تفرغ في هذا القالب - تصبح موافقة تمام الموافقة للنظرية التي توصل إليها علماء الاجتماع في العصر الحاضر عن منشأ الملك بوجه عام: لأن أصحاب هذه النظرية يقولون إن الممالك لم تتكون في بادئ الأمر إلا بفضل المعتقدات الدينية.

إن الأبحاث التي قام بها عدد كبير من العلماء والمفكرين - مستندين إلى المعلومات التي جمعوها عن أحوال الأقوام البدائية من جهة، وعن تواريخ الدول القديمة من جهة أخرى - قد أوصلتهم إلى هذه النظرية. فقالوا: إن تكون الجماعات السياسية الكبيرة والممالك العظيمة، في القرون القديمة، لا يمكن أن يفسر إلا بتأثير الاعتقادات الدينية، على اختلاف أنواعها وأطوارها. فالاعتقاد بقوى خارقة للعادة - من الاعتقاد بالقوى السحرية إلى الإيمان بالقوة الإلهية - هو الذي مهد السبل إلى تكوّن الجماعات الكبيرة واستقرار الحياة السياسية، في أطوار البداوة والهمجية.

وقد كتب الباحث الإنكليزي المشهور (فرايزر) كتاباً ضخماً ضمنه أمثلة وبراهين كثيرة، تدل على أن الملكية نشأت من الاعتقادات السحرية: كان الناس يخضعون للملك، لاعتقادهم بأنه يتمتع بقوة سحرية، وكانوا يرون من الطبيعي أن يخلفه ابنه، لاعتقادهم بأن هذه القوة السحرية تنتقل منه إليه، وقد برهن المؤرخ الفرنسي المشهور (فوستل دو كولانثر) - في كتابه (المدينة القديمة) - أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان أيضاً قامت على بعض الاعتقادات والعبادات.

وقد لاحظ جميع المؤرخين أن الاعتقادات الدينية تلعب دوراً هاماً في سياسة دول القرون الأولى. والاعتقادات الدينية السياسية اجتازت مراحل عديدة ومتنوعة: الملك إله، الملك ابن الإله، الملك من نسل الآلهة، الإله يتقمص جسد الملك، الإله ينفخ في الملك شيئاً من روحه، الإله يمد الملك بالهاماته، هذه أشكال مختلفة - وأطوار متتالية - من الاعتقادات التي كانت تربط الملكية بالدين، وتساعد على جمع طوائف كبيرة من الناس تحت إدارة



واحدة في تلك القرون القديمة.

أنا لا أرى هنا مجالاً لذكر الأمثلة والبراهين والنصوص التي تؤيد هذه النظرية. ولذلك سأكتفي بالإشارة إلى كتاب (تيارات التاريخ العالمي العظيمة) الذي نشره أخيراً (جاك بترن) أستاذ التاريخ في جامعة بروكسل. تصفحوا المجلد الأول من هذا الكتاب القيم، (وهو المجلد الذي يلخص التطورات التاريخية التي حدثت في العالم منذ القدم حتى ظهور الإسلام)، تجدوا في كل فصل من فصوله تقريباً بعض الأبحاث التي تنم عن الترابط المتين الذي كان قائماً في تلك العصور القديمة بين تطور الحوادث السياسية وبين تقلب المعتقدات الدينية.

لا شك في أن الحروب كانت تلعب دوراً أساسياً في توسع الممالك وتكوّن الإمبراطوريات: فإن ملك قطر من الأقطار يستولي على مدن وأقطار أخرى بقوة السلاح، ويوسع حدود ملكه عن طريق الفتوح العسكرية. غير أن نتائج هذه الفتوح ما كانت تدوم وتستقر، إلا إذا دعمها شيء من التفاعل والتزاوج والتلاقح بين معتقدات البلاد الفاتحة وبين معتقدات البلاد المفتوحة، وهذا التفاعل كان يأخذ أشكالاً مختلفة: تارة كان الاعتقاد ينتشر بأن آلهات جميع تلك البلاد لا يختلف بعضهم عن بعض إلا بالأسماء؛ فكان يصبح الملك ممثلاً لآلهة البلاد الفاتحة والمفتوحة على حد سواء. وطوراً كان يتولد الاعتقاد بأن إله الملك الفاتح هو الإله الأكبر. وأما آلهة البلاد المفتوحة فهي من أتباع ذلك الإله الأعظم، وعلى كل حال كانت هذه المعتقدات - وأمثالها من المعتقدات المتنوعة - تساعد إلى حد كبير على خضوع أهالي البلاد المفتوحة للحكم الجديد خضوعاً نفسياً، فكانت تقلل أو تزيل الحاجة إلى استعمال القوة والقسوة لإدامة ذلك الخضوع.

ولا أراني في حاجة إلى القول بأن أمثال هذه المعتقدات الدينية السياسية، ما كان يمكن أن تدوم بعد انقضاء عهود الوثنية القديمة، ومع هذا أرى من الضروري أن أشير إلى نظرية (سياسية دينية) سادت على الأذهان في أوروبا - في عهد تكوين الممالك - حتى القرن الثامن عشر: وهي النظرية القائلة (بأن الملوك يحكمون بتفويض من الله). ومما لا مجال للشك فيه أن هذه النظرية كانت بمثابة (الأصداء الأخيرة) لتلك المعتقدات القديمة التي شرحناها آنفاً.

وخلاصة القول إن الأبحاث التاريخية والاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن خضوع الناس إلى أحكام السلطات، لم يتيسر في بادئ الأمر إلا بفضل المعتقدات الدينية. ويظهر من ذلك - بكل وضوح - أن ما قاله ابن خلدون في مقدمته المشهورة، عن العرب في طور البداوة، لا يختلف عما يقوله العلماء والمفكرون والمعاصرون عن الأمم القديمة بوجه عام. فنستطيع أن نقول - بكل تأكيد - إن تاريخ العرب لا يشذ عن تواريخ سائر الأمم، من هذه الوجهة أيضاً.

بعد هذه النظرات الانتقادية التي وجهناها إلى المقدمات التاريخية، يجدر بنا أن نرجع إلى السؤال الأصلي، لنرى: هل الشقاق طبع في العرب؟

إن المقارنات التي قمنا بها آنفاً بين تاريخ الأمة العربية وبين تواريخ الأمم الأخرى من وجهة الشقاق، تسهل علينا الإجابة عن هذا السؤال إجابة مبنية على قياس صحيح واستقراء تام. إن الشقاق وليد الأنانية، والأنانية طبع غريزي في الإنسان، وجماح هذه الأنانية لا يكبحها إلا التربية الاجتماعية المتينة، والتشكيلات الحكومية القوية، والنزعة المثالية الفعالة، والإيمان الديني أو القومي أو الوطني العميق.

ففي كل أمة من أمم الأرض، وفي كل دور من أدوار التاريخ يظهر أناس تتغلب في نفوسهم الأنانية على العوامل التي ذكرناها آنفاً، ولكن الرأي العام من جهة، والقوانين الموضوعة من جهة أخرى، تعاقب هؤلاء وتعزلهم عن المجتمع بصور شتى ووسائط متنوعة، وتجعلهم عبرة للآخرين، فتحول بذلك دون استفحال هذه الأنانية وانتشارها بين الناس. غير أنه يأتي أحياناً في كل أمة من أمم الأرض بعض الأدوار من التاريخ تضعف فيه هذه القوى الوازعة فتنفلت الأنانيات من عقالها، ويتضاءل تأثيرات الرأي العام فيها، فتقل سلطة الحكومات عليها، وكل ذلك يؤدي إلى ازدياد الشقاق وانتشار الخلاف بين الناس.

هذا ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث في كل أمة من الأمم، وفي جميع أدوار التاريخ، وليس في طباع العرب ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم في هذا المضمار، هذا هو جوابي، يا صديقي الأستاذ، عن السؤال الذي وجهتموه إلي، لا يوجد في طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم في أمر الاتفاق والانشقاق.



يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة، كما يجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأن طبائع الأمم لا تبقى على وتيرة واحدة على مر العصور. وقد صدق من قال: (إن من يتوهم الاستقرار في طبائع الأمم كمن ينشد البقاء في الموجات التي تحدث على سطح الماء عندما ترمي حجراً فيها). فإن الماضي لا يقيد الحال تقييداً مطلقاً. وتحقق الوحدة والاتفاق في الماضي لا يكفي لدرء أخطار التفرقة والشقاق في الحال كما أن حدوث التفرقة والشقاق في الماضي لا يمنع الاتحاد في المستقبل.

فيجب علينا أن نتخلص من نزعة الانشغال بالماضي كثيراً، وأن نقلع عن الالتفات إلى الوراء دائماً. فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوئنا الحالية بنقائض أسلافنا الأقدمين، ولا أن نسعى لإلقاء مسئولية نكباتنا على عاتق تاريخنا القديم، ولا يسوغ لنا - على وجه خاص - أن نستسلم إلى دواعي الخور والكسل، وأن نتقاعس عن الكفاح والعمل، بحجة أن الحالة الحاضرة نتيجة حتمية لطبائع الأمة ولمجرى تاريخها العام.

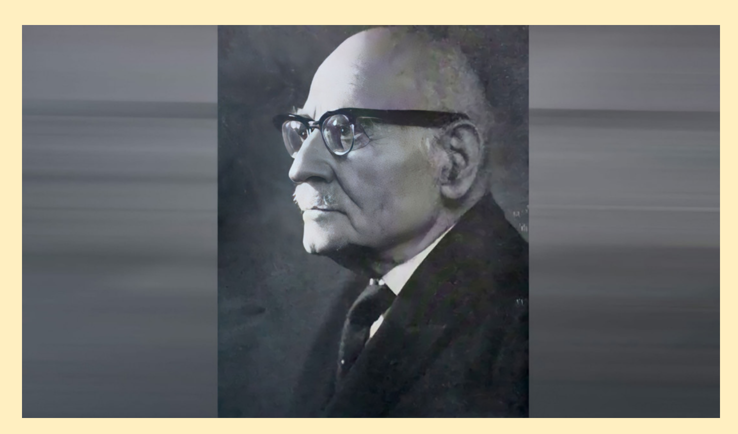
إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية، ونحشدها لتحقيق هدفنا الأسمى بل إنما عملنا بتراخٍ وترددٍ بدون عزم قوي وتنظيم متين وإيمان عميق فأضعنا بذلك فرصاً كثيرة، ومهما يكن الأمر، يجب علينا أن لا نقطع الأمل في النجاح في المستقبل، وأن لا نتأخر عن إعادة الكرة بإيمان أعظم، إذ يجب علينا أن لا ننسى أنه ما من أمة وصلت إلى الكمال الذي تنشده إلا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة، وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة، واضطرت إلى تضحيات كبيرة.

إن الأمم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين. وأستطيع أن أقول: الايمان المتواصل القوي العميق بإمكانيات أمتنا، والعمل المتواصل لتحقيق غايتنا، والاستعداد التام للكفاح مصحوباً بروح التضحية الحقيقية، ومدعوماً بالأمل الذي لا يقهر...

وكأني أسمع سلسلة أسئلة اعتراضية تقابل ما قلته آنفاً:؟ ألا تلاحظ فظاعة الاختلافات التي تهز كيان جامعة الدول العربية هزاً عنيفاً؟ ألا تشعر بالأخطار التي صارت تهدد مستقبلنا في عقر دارنا؟

بلى، إني أدرك واشعر وألاحظ كل ذلك إدراكاً تاماً وشعوراً عميقاً وملاحظة دقيقة، وأتألم من كل ذلك ألماً شديداً.

وهل كان فشل مؤتمر فرنكفورت في ألمانيا - قبل قرن واحد من يومنا هذا - أقل خطراً من فشل مجلس جامعة الدول العربية هذه السنة؟ ألم يقل بعض الساسة - عقب انحلال المؤتمر المذكور - (أن الألمان فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم؟)، ألم يتساءل بعض الكتاب عندئذ قائلين: (أين هي ألمانيا؟ هل لها وجود في غير مخيلة بعض الشعراء وأحلام بعض رجال السياسة)؟، ومع ذلك، ألم تتحقق وحدة ألمانيا في حياة الكثيرين من حضروا مؤتمر فرنكفورت الفاشل؟



وبناء على هذه الملاحظات أقول بلا تردد: لا يجوز لنا أن نترك مجالاً لتسرب الخور والقنوط إلى أنفسنا ويجب علينا أن نعلم علم اليقين: أن النكبة لا تصل إلى حدها الأقصى إلا عندما تثبط العزائم، كما أن الفشل لا يصبح تاماً إلا عندما يؤدي إلى التقاعس عن مواصلة العمل والكفاح، فعلينا أن نحذر كل الحذر من العمل على زيادة النكبة وإتمام الفشل بالاستسلام إلى القنوط والخور.

أبو خلدون ساطع الحصري



الصفحة الثقافية: فيلم فرحة.... الفرحة المزيفة

طالب جميل



فيلـم (فرحـة) هـو فيلـم روائـي طويـل مـن تاليـف وإخـراج (داريـن سـلام) وقـام بـالأدوار الرئيسـية فيـه كل من (كـرم طاهـر، تـالا جمـوح، أشـرف برهـوم، علـي سـليمان، وسـميرة الأسـير)، وتـم تصويـره فـي عـدة مناطـق فـي الأردن. مـدة الفيلـم حوالـي سـاعة ونصـف السـاعة، وقـد عـرض فـي عدة مهرجـانـات سـينمائية وحصـل علـى عدة جوائـز فـي الإخـراج والتمثيـل، كمـا عـرض علـى منصـة «نتفليكـس» الأمريكيـة.

تتـم الإشـارة فـي بدايـة الفيلـم إلـى أن القصـة مسـتوحاة من أحداث حقيقيـة حيث تظهر جملـة (فـي فلسطين 1948)، ممـا يـدل علـى أن الموضـوع الرئيسـي فـي العمـل يرتبـط بحـرب عـام 1948 وباحتـلال فلسـطين وقتـل وتهجيـر أهلهـا علـى يـد القـوات الصهـ.يـ.ـونية، لكـن حـال وواقـع الفيلـم يسـير باتجـاه آخـر، حيـث يتنـاول الفيلـم قصـة فتـاة قرويـة تدعـى (فرحـة) يتركهـا والدهـا (مختـار القريـة) فـي غرفـة لتخزيـن المونـة ويغلـق عليهـا بإحكام بعـد سـماعه بدخـول (جنـود) إلـى القريـة، وتقضـي الفتـاة حوالـي ثلثـي وقـت الفيلـم فـي هـذه الغرفـة المغلقـة.

أصـوات إطـلاق رصـاص، ذعـر فـي القريـة وهـروب للأهالـي، سـيارات تحمـل جنـود يتجولـون فـي القريـة، كلمـات قليلـة بالعبريـة، مشـهد لثـوار فـي بيـت المختـار يطلبـون دعمـه فيـرد المختـار بـأن هنالـك تهجيـر فـي أغلـب القـرى وأن القـوات العربيـة سـتصل قريبـاً. بهـذه المشـاهد كانـت تمـر النصـف سـاعة الأولـى مـن الفيلـم، مـن دون أي إشـارة واضحـة إلـى هويـة الجنـود، ومـن أيـن جـاءوا، وكيـف، ومـن هـي الجهـة التـي تقـوم بتهجيـر النـاس مـن بيوتهـا، ومـن يقـاوم الثـوارُ، ولمـاذا سـتأتي الجيـوش العربيـة؟

بهذا الكم من السطحية والتغافل عن ذكر اسم الكيان المجرم كان يأخذنا الفيلم إلى حكاية (فرحة) التي تراقب من خلف ثقب الباب لحوالي ساعة من وقت الفيلم ما يحدث في باحة البيت، فتشاهد دخول مجموعة من الجنود -الذين لا ينتمون لأي كيان- وهم يداهمون البيت ليجدوا أن هنالك عائلة قد لجأت للبيت مكونة من زوج وزوجة وأولاد وطفل رضيع وُلد في البيت، وكان يرافق الجنود في المداهمة رجل عربي ملثم هو والد (فرحة) حيث يتبين أنه متعاون مع الجنود وأنه خائن، فيقوم الجنود بقتل كافة أفراد العائلة باستثناء الرضيع، الذي يتردد الجندي في قتله ويبكي بحرقة عليه قبل أن يتركه. وبعد محاولات عديدة تستطيع (فرحة) خلع باب الغرفة بسلاح ناري، وتخرج لتتأمل ملامح القرية الخاوية والطيور والجبال وتقضي آخر دقائق الفيلم في جولة بين الأشجار باحثة عن شيء مجهول.

من زاوية أخرى، لم يقدم الفيلم نصاً جيداً ومتماسكاً، بل غرق في السطحية والاستعراض، والحوار فيه كان يقتصر على جمل قصيرة ومختصرة، لذلك بعد الثلث الأول منه لم تتطور الأحداث وتفرغت (فرحة) فقط لمراقبة ما يحدث من ثقب باب، ومحاولة تسلية نفسها أحياناً وقضاء حاجتها في أحيان أخرى، وبالتالي هدر وقت المشاهد من دون أي فائدة أو متعة.

يبدو أن صنّاع الفيلم أرادوا صناعة عمل مقبول لدى الغرب لا يتضمن إي إدانة واضحة للصهـ.ايـ.نة ولا يشير بشكل صريح إلى العصابات الصهـ.يـ.ونية أو إلى كلمة صهـ.ايـ.نة أو حتى (إسرائيل). على العكس من ذلك تماماً، تم إظهار الرجل العربي الخائن بكل وضوح، وهو والد (فرحة) ولم يتم مواراة ذلك أو إخفاؤه، كذلك تم طرح القصة على أساس أنها قصة من حدث تاريخي مر وانتهى أو حكاية فردية ترتكز على الجانب الحقوقي للإنسان، وتحييد فكرة استمرارية الصراع وأنها عملية احتلال وإبادة وتهجير وتطهير عرقي ما برحت مستمرة، مع الالتزام بترويج الخطاب الليبرالي الصهـ.يـ.وني من خلال إظهار الجانب الإنساني للجندي القاتل الذي يفترض أنه صهـ.يـ.وني، وإذا كان الفيلم مستوحى من أحداث حقيقية، كما ذكر في بداية الفيلم، فلماذا لم تروَ الحقيقة كاملة؟



عند التصدي لهذا النوع من القضايا وطرحه عبر عمل فني فإن الأمر لا يحتمل الذهاب نحو الرمادية والغموض والمكر السينمائي، ولا يمكن المجاملة أو تشويه الحقائق وتزييف التاريخ عبر تجميل صورة العدو بغرض تمرير الفيلم على المنصات العالمية والمهرجانات الغربية، وهذه النوعية من الأفلام تصبح أكثر خطورة من الأعمال المعادية لأنها تُروى بلسان عربي، وبالتالي سيعتقد العالم بأن هذه روايتنا عن القضية، وأن مشكلتنا مع الصهـ.ايـ.ـنة ليست أكثر من خلاف في وجهات النظر، عدا عن أنها ستتحول إلى فخ سيقع به كثير من المشاهدين، خاصة من العرب الذين لم يقرأوا تاريخ صراعنا مع الصهـ.ايـ.ـنة، مثلما حدث مع صنَاع الفيلم.

من المؤسف جداً أن يتم الترويج للفيلم على أنه عمل يتناول قضية احتلال فلسطين وتهجير أهلها، وليس من الغرابة أن تحتفي بعض المؤسسات الإعلامية العربية المتورطة بالتطبيع والممولة من جهات مشبوهة بهذا العمل كون هذا الشكل من الأفلام مقبول لدى الغرب وينسجم مع خطابهم المعادي للعرب وسياساتهم المتماهية مع مشاريع التسوية والتطبيع مع العدو الصـ.ـهـ.ـوني.

إن عرض الفيلم على منصة أمريكية مثل «نتفليكس» التي تعرض أفلام صهـ.يـ.ـونية بشكل مستمر، ليس دليل نجاح بقدر ما هو دليل خيبة وتواطؤ ووقوع في المصيدة من خلال صناعة أعمال عن قضايانا الوطنية والقومية بمواصفات غربية وبرواية ترضي الغرب وتكون مقبولة لديهم على حساب الحقيقة التاريخية لقضية كبرى مثل قضية احتلال فلسطين من قبل الكيان الصهـ.يـ.ـوني الإرهابي.

قصيدة العدد: الاعتراف

يوسف الخطيب



إلى أمير الكنيسة العربية
الأب السوري الفلسطيني المقاوم
هيلاريون كبوجي*
في ذكرى رحيله الخامسة

أبتي...
أَظُنُّ غَسُولَ هذي الأَرضِ من دَمِنا
وأَنَّ يداً تُعَتِّقُ لِلصباح صفاءَ أَدمعِنا
وأنَّ غداً، سَيُولَدُ مِن مخَاضِ غدٍ
فَيُرحم حزنَ هذا الكون في أحناء أضلُعنا..
أظُنُّ هناك أزمنَةً.. وأُمكِنَةً..
على أقصى تخوم الحلم
تأخذُ سَمْتَ وَجْهَتِنا..
وأنَّ عليك، ما بين الشريعة- والبُراقِ
سهادَ هذا الليل
في نجمٍ وقافلة.. وفي فَرَسٍ مجنحةٍ..
تكون رموز مَوْعِدنا..

أبتي...
أَظُنُّ لَمحْتُ شِبْهَ الوجه، خلفَ شبيهةِ القُضبانِ
من أَلفين.. أَذْكُرُ شِبهَ هذا الليل..



والسَّيافِ.. والسجان..
أَذْكُرُ شِبْهَ آنِيَةٍ .. وغانيةٍ..
وَجَرَّةَ عنبرٍ سُفِحَتْ..
ومن دوني إليكَ مَفازةُ التَّذكارِ.. والنسيان..

أذكرُ .. كُنتَ زوبعةً على بَرِّيَّةِ الأَحقاف..
ذلك صوتُكَ البَدَوِيُّ يَصهَلُ فوق بَر الشامِ..
كان البرق شبه يدٍ تَخطُّ على جدار الليلِ مَوْعِدَهُ
وأنت تشي به.. بين الندى.. وشَذى الخزام..
وكان روحُ اللّهِ مُنْسَرِحاً على جَبَلِ الخليلِ
وأنتَ، أَنتَ، نَزَلتَ جلعاداً إلى طَنَفِ الشريعةِ
تَستَحِمُّ يداك
في ألقِ السماء.. وطينة الإنسان..

أذكر أن هذا السجنَ.. كان السجنَ..
والرؤيا .. هي الرؤيا..
ورأسُك شعلةٌ حمراء تطلعُ في دجى كنعان..

أَبتي.. أُسِرُّ إِليكَ وَحدك..
رَجْعَ صوتك
فاحتفظ بالسِّر.. عن غير الصباح..
وغيرِ أجنحةِ الرياح..
وغيرِ حَنْجَرَةِ الصدى..

أبتي.. أُسِرُّ إليك..
سوف يجيءُ وعدُ غَدٍ
يكونُ.. أغانياً .. ومغانياً..

وَصَباً.. وَعَهْدَ صِباً..
وَعُرْسَ قِيامَةٍ يَسَعُ المدى...

سَيَجِيءُ جيلُ غَدٍ.. يكونُ مخاضَ ليلِ القهر..
جيلُ غَدٍ.. يُعاوِدُ فَوْرَةَ التكوين ثانيةً،
يكونُ الأَرضَ خالية،
وروحَ اللَّهِ تَخْفِقُ فوق وجه الغَمْرِ..
جيلُ غد..
وأحدِسُ أَنَّهُ المكنون ذاك وراء هذا الليل
تَنَهَشُهُ الجوارحُ.. في جوارحنا...
وتَنفُرُ حَبَّتَيْ عينيه.. في حَبَّاتِ أَعْيُنِنَا..
يُولد خلف سِجْفِ الليلِ، وَهْجَ البرق
يَنْفُذُ مِنْ كُوَى ظُلُماتِ كهفِ الشرق...

يومئذ... يصوغ رمادَه الناريَّ أجنحةً
وهُنَّ هناك - تحتَ جَهَنَّمِ الدمِ، والدخانِ-
يلدنَ.. مَنْ سَيَلِدنَ ؟
يستمطرن غيثَ الروح في أرحامِهِنَّ..
يَكُنَّ تَوْقَ مجيئه...
وَيَكُنَّ عُقْمَ القفرِ...

يومئذ...
سَيَغْمِدُهُ لهيبُ الحزنِ، ما بين الترائبِ،
مثلَ لَذعِ الجمر..
ثم يجيْنَ سامِرَ نخلة
بين الحَجُونِ .. فَبَيْتَ لَحْم.. فالصفا..

فَيَلِدْنَه.. آناً معاً..
جوفَ المغارة - في حِراءَ..
وفوق سفح الطُّورِ - من عرفات..
بين مِنَى.. ويُستانِ القِيامَةِ..
وَهُوَ ذاكَ يُشَقِّقُ الصُّوَّانَ عَن مُخْضَلِّ عَرسِتِهِ
فيشرب نار خمرتِهِ العتيقة من عروقِ الأَرضِ
ثم يعودُ يَسفَحُها على ظَمَأ السماء...

أبتي...
أَظُنُّ غَسُولَ هذي الأَرض.. مِن دَمِنا...
وأنَّ هناك أزمنةً.. وأمكنةً..
على أقصى تُخومِ الحُلْمِ
تأخذُ سَمْتَ وِجْهَتِنا
وأن عليك، ما بين الشريعة - والبُراقِ
سهادَ هذا الليل
في نجم، وقافلة.. وفي فَرَسٍ مُجنَّحَةٍ..
تكون رموزَ مَوْعِدِنا.

*

لم يمر يوم الثامن من آب عام 1974 كأي يوم عادي على المطران العربي السوري هيلاريون كبوجي في الأرض المحتلة، إذ استقل سيارته المحملة بالمتفجرات والأسلحة التي اعتاد تهريبها للمقاومين مستنداً على حرية الحركة الممنوحة لرجال الدين، وانطلق قاصداً القدس، إلا أن جهاز الأمن العام (الشاباك) أوقف السيارة بعد مراقبة حثيثة لنشاط المطران، ليؤسر على إثر ذلك ويذوق مرارة التعذيب والإجرام الصهيوني ويدخل محاكمة أفضت إلى عقوبة السجن لمدة 21 عاماً، وبعد أن قضى 4 سنوات في الأسر مع رفاقه، أفرج عنه بطلبٍ من البابا، وكانت حاضرة الفاتيكان قد قدمت وعوداً للكيان الصهيوني

بمنع المطران من مزاولة أي نشاط مقاوم، فصدر القرار بالنفي إلى روما وأبعد المطران العاشق للقدس وأهلها عن فلسطين وعن سورية مسقط رأسه وأجبر على الإقامة في روما حتى وفاته، وكان طيلة هذه الفترة متمسكاً بعروبته وداعياً للقضية الفلسطينية في أوساط العرب والأجانب على حدٍ سواء، رغم القيد.

في الأول من كانون الثاني عام 2017، رقد المطران كبوجي على رجاء القيامة بعد أن اطمأن على حلب، مدينته الأم التي كانت تنفض عنها غبار الحرب وتتطهر بسواعد أبطال الجيش العربي السوري من دنس الإرهاب، وها هي تتحرر بعد أعوام من مرارة الأسى والتهجير والإجرام، وكذلك هي فلسطين التي ستشهد قيامتها وتنتزع حريتنا انتزاعاً من احتلال صهيوني وحشي دام نحو ثلاثة أرباع قرن، هذا ما آمن به المطران كبوجي، وهذا إيماننا.

أججت الملحمة البطولية لمطران القدس مشاعر الجماهير التواقة إلى الحرية، فصاغها الشاعر الفلسطيني الراحل يوسف الخطيب قصيدة متفردة موغلة في الصدق والإيمان والإبداع على المستوى الوجداني وعلى المستوى الشعري، مهداةً إلى «أمير الكنيسة العربية، الأب السوري الفلسطيني المقاوم هيلاريون كبوجي»، المحكوم عليه بالنفي، ومن قال إن النفي ينسي الأحرار دفء الوطن؟ هذه قصيدة الاعتراف (1978)، نعيد نشرها في ذكرى وفاة مطران القدس المقاوم، الأب هيلاريون كبوجي، رحمه الله.



رسم العدد:

العرين...


المجلة الثقافية للائحة القومي العربي